الوسائل البلاغية للنقد الحجاجي

تنظير وتطبيق

إعداد الدكتورة

زينب كمال سليم محمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات ببني سويف - جامعة الأزهر

الوسائل البلاغية للنقد الحجاجي (تنظير وتطبيق)

زينب كمال سليم محمد

قسم: البلاغة والنقد، كلية: الدراسات الإسلامية والعربية بنات بني سويف، جامعة: الأزهر- محافظة بني سويف، جمهورية مصر العربية.

البريد الالكتروني: Masa5kamal@gmail.com

ملخص البحث

يتناول البحث الوسائل البلاغية للحِجاج، ويهدف إلى توضيح أصالة فن الحِجاج في التراث العربي، وبيان وسائله البلاغية التي يستخدمها المتكلم لإقناع السامع، فالحجاج فن عربي أصيل استخدمه العرب على مر العصور الأدبية، وظهر جليا في تراثنا الأدبي - شعرا ونثرا - في العديد من الـ صور البلاغية بهدف الإقناع بالهدف المنشود، وقد بينت الوسائل البلاغية التي اعتُمد عليها في الإقناع بالهدف، أو في نقد فكرة واستبدالها بأخرى، مع التمثيل والتحليل لنماذج تطبيقية من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي، وقد استخدمت المنهج الوصفي والتحليلي في بيان الوسائل البلاغية التي يعتمد عليها فن الحجاج في عملية الإقناع، مؤصلة لتلك الوسائل بحسب انتمائها وتـ صنيفها في علوم البلاغة الثلاثة؛ المعاني والبيان والبديع ، ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن الحِجَاج بوصفه نظرية يتوصل من خلالها إلى الإقناع والإمتاع معا فنٌ أصيل عند العرب، وأنه لا يعد فنا منطقيا بحتا خاليا من روح الجمال بل هو فن جمالي فكري يجمع بين الإقناع وإيناس النفس بالحس الجمالي.

الكلمات المفتاحية: (بلاغة- الحجاج- الإقناع- الوسائل- النقد)

Rhetorical Means of argumentative Criticism (Theorization and Application)

By: Zainab Kamal Saleem Mohammed
Department of Rhetoric and Criticism
Faculty of Islamic and Arabic Studies for Women in Beni Suef
Azhar University

Abstract

The present research handles the rhetorical means of argumentation, traces its origins in the Arabic heritage and displays the rhetorical means employed by the speaker to persuade the listener. Argumentation is originally an Arabic art since the Arabs used it along their literary ages and that is evident in the literary heritage - (poetry and prose)- as conveyed through many rhetorical images utilized to convince the listener with the desirable objective. The research has clarified the rhetorical means used to achieve persuasion concerning the desirable objective or criticism of an idea and replacing it with another, giving examples and analyzing applicable instances from the Holy Qur'an, prophetic traditions, and Arabic poetry. The research applies the descriptive and analytical approaches to highlight the rhetorical means employed by the argumentative art in the process of persuasion. The researcher has traced the roots of those rhetorical means considering their origins and classification in the three rhetorical sciences: semantics, eloquence, and poetics. By the end of the research, the researcher has summed up the most important findings. For example, the argumentative art, an original art for the Arbs, can be taken as a theory leading to both persuasion and entertainment. The argumentative art is not logically a pure art devoid of the spirit of beauty, but it embodies an aesthetic and intellectual art gathering both persuasion and making the psyche relish the aesthetic sense.

Key words: rhetoric, argumentation, persuasion, means, criticism.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد؛؛؛

فيتناول هذا البحث الوسائل البلاغية للحجاج تحت عنوان: الوسائل البلاغية للنقد الحجاجي (تنظير وتطبيق)، ولا أقصد بتحديد الوسائل البلاغية للحجاج حصرها فيما ورد في البحث، ولكن يغلب على ظني أن تلك التي ذكرت ودللت عليها بنماذج تطبيقية من الكتاب والسنة وديوان العرب هي من أبرز الوسائل البلاغية للحجاج.

ويرجع سر اختياري لموضوع البحث: إلى أهمية الحجاج في كونه سبيلا إلى تمييز الحق من الباطل، والتراث العربي يزخر بالأساليب الحجاجية في مختلف العلوم والفنون إلا أن بعض المنفتحين على الوارد الغربي أهملوا ما يزخر به التراث العربي من الأساليب الحجاجية ناسبين نشأة نظرية الحجاج إلى الغرب جاعلين بداية ظهورها في نهاية عقد الخمسينيات من القرن العشرين، وناسبين تفتيق أصولها إلى بعض علماء اللسانيات الغربية أمثال بيرلمان وتيتيكا؛ لذا رغبت في توضيح أصالة فن الحِجاج في التراث العربي مُبينة وسائله البلاغية التي اعتمد عليها في الإقناع بالهدف المنشود، أو في نقد فكرة واستبدالها بأخرى.

هذا وقد تنوعت الدراسات السابقة لفن الحجاج في مختلف العلوم؛ كالفلسفة والمنطق وعلوم اللغة، ومنها نظريات الحجاج للدكتور جميل حمداوي، واللغة والخطاب لعمر أو كان، وفي نظرية الحِجاج لعبد الله الصولة، وغيرها، ولكني أتناول دراسة الحجاج من منظور بلاغي بمنهج وصفي وتحليلي موضحة الوسائل البلاغية التي يعتمد عليها؛ للوصول إلى إقناع المخاطب، فقد تناولته من جانب مختلف يؤصل لوسائل الحجاج البلاغية نظريا وتطبيقيا بالشواهد من الكتاب والسنة وديوان العرب، ثم أتبعت ذلك بتحليلٍ بلاغي لآيات من الذكر الحكيم تنفي الولد والشريك عن الله –تعالى–.

هذا وقد جرت خطة البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة على النحو التالي:

المقدمة: تتضمن عنوان البحث، وسبب اختياره، والدراسات السابقة، ومنهج البحث وخطته.

التمهيد: الحجاج مصطلح عربي أصيل

المبحث الأول: الوسائل الحجاجية المنبثقة من علم المعاني

١. أدوات التأكيد (أ. إنَّ – ب. النفي والاستثناء)

٢. أسلوب الحكيم

٣. الاستفهام

٤. التذييل

المبحث الثاني: الوسائل الحجاجية المستقاة من علم البيان

١. التشبيه التمثيلي

٢. الاستعارة

٣. الكناية والتعريض

المبحث الثالث: الوسائل الحجاجية المستقاة من علم البديع

١. استيفاء الأقسام بالذكر

٢. المذهب الكلامي

٣. التعليل

المبحث الرابع: من بلاغة الإقناع في بعض آي نفي الولد والشريك عن الله –عزَّ وجلَّ–

الخاتمة: وتتضمن أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

هذا والله أسأل التوفيق والسداد إنه على ذلك قدير .

التمهيد

الحجاج مصطلح عربي أصيل

الحُجَّة في اللغة: "البرهان، وقيل: ما دُوفع به الخَصم، واحتجَّ بالشيء: اتخذه حُجَّة"(١)، و"حاججت فلانا؛ فحججته؛ أي: غلبته بالحُجَّة، وذلك الظفر يكون عند الخصومة، والجمع: حُجَج، والمصدر: حِجاج".(٢)

وفي الاصطلاح: "الحُجَّة: ما دَلَّ به على صحة الدعوى، وقيل: الحُجَّة والدليل واحد."(٣)

فالحجاج: "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، وأن تزيد درجة ذلك التسليم"(٤)

والحجاج ليس ظاهرة حديثة ابتدعها الغرب، ولكنه مصطلح عربي أصيل يظهر بوضوح في علوم العربية؛ كعلم الأصول والفلسفة والمنطق، وعلم الكلام والخطابة، ويتجلى واضحا في البلاغة والنقد حين يكون الهدف إقناع المتلقي مع إمتاعه، أو إفحام الخصم.

وقد ذُكِرت في القرآن الكريم مصطلحات (الحجاج والجدال والبرهان)، قال تعالى: "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ"(٥)، وقال تعالى: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (حجج) ط١ دار المعارف بالقاهرة- مصر ١٩٨١م .

(٢) مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ٢/ ٣٠ ط١ دار الفكر للطباعة والنشر ببيروت- لبنان ١٣٩٩ هـ /١٩٧٩م.

(٣) التعريفات لعلي بن محمد الشريف الجرجاني ص٨٢ ط١ دار الكتب العلمية ببيروت- لبنان ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م.

(٤) في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات لعبد الله الصولة ص١٢ ط١ الشركة التونسية بتونس د.ت.

(٥) الأنعام جزء آية ٨٣.

إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ"[١]، وقال تعالى: "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[٢]

والقارئ لمؤلفات ابن المقفع (ت١٤٢ هـ)، والجاحظ (ت٢٥٥ هـ) يُدرك أنها تذخر بالحجاج البلاغي الذي يجمع بين الإقناع والإمتاع معا.

فقد ذكره ابن المقفع (ت١٤٢ هـ) في تعريفه للبلاغة عندما سُئل: "ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج."[٣]

وقد عرَّف إسحاق الكاتب (ت بعد ٣٣٥ هـ) مصطلحي (الجدل والمجادلة) بأنهما: "قول يقصد بهما إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويُستعمَل في المذاهب والديانات، وفي الحقوق والخصومات، وفي التسؤل والاعتذارات، ويدخل في الشعر وفي النثر."[٤]

وكان أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) من السابقين إلى ذكر الحِجاج، فقد أشار إلى قول عبيد الله بن عتبة في معنى البلاغة: "البلاغة: دنو المأخذ، وقرع الحجة"[٥]، وخص الحِجاج بفصل في كتابه الصناعتين تحت عنوان: (في الاستشهاد والاحتجاج) قائلا: "وهذا الجنس كثير

(١) العنكبوت جزء آية ٤٦.

(٢) البقرة جزء آية ١١١.

(٣) البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ١/ ١١٤ ط٧ مكتبة الخانجي بالقاهرة- مصر ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م.

(٤) البرهان في وجوه البيان لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب، تحقيق: حفني محمد شرف ص١٧٦ ط١ مطبعة الرسالة بالقاهرة- مصر د.ت.

(٥) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال الحسن بن سهل العسكري، تحقيق: أ. علي محمد البجاوي- أ.محمد أبو الفضل إبراهيم ص٢١ ط١ المكتبة العصرية صيدا- بيروت- لبنان ١٤٢٧ هـ ٢٠٠٦م.

في كلام القدماء والمحدثين، وهو أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر، ومجراه مجرى التذييل؛ لتوليد المعنى؛ وهو أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته."(١)

وقد ذكر الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ) حدودا للبلاغة على ألسنة السابقين منها: "إصابة المعنى والقصد إلى الحُجَّة."(٢)

وعلى هذا فقد مارس العرب فن الحجاج منذ القدم، وأسواق العرب خير شاهد ودليل على ذلك، وعلى رأسها سوق عكاظ الذي كان مصنعا للأحكام النقدية الممتزجة بالممارسات الحجاجية، وقصة حسان بن ثابت مع النابغة خير دليل على تلك المحاجة، فقد فضَّل النابغة الأعشى، وقدَّمه على حسان، وفضَّل الخنساء على بنات جنسها؛ فغضب حسان قائلا: "أنا والله أشعر منك ومنها، قال: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُحى وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما
وَلَدنا بَني العَنقاءِ وَابني مُحَرِّقٍ فَأَكرِم بِنا خالاً وَأَكرِم بِنا اِبنَما

فقال النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك، وفي رواية أخرى: فقال له: إنك قلت: الجفنات، فقللت العدد، ولو قلت: الجفان لكان أكثر، وقلت: يلمعن في الضحى، ولو قلت: يَبرُقن بالدجى لكان أبلغ في المديح، لأن الضيف بالليل أكثر طروقًا، وقلت: يقطرن من نجدة دمًا؛ فدللت على قلة القتل، ولو قلت:

(١) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال الحسن بن سهل العسكري، ص٣٨٣ .

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ١/ ٢٠٣ ط١ دار الطلائع للنشر القاهرة- مصر ٢٠٠٦م .

يجرين لكان أكثر؛ لانصباب الدم، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسان منكسرًا منقطعًا".[1] فنقدُ النابغة لبيتي حسان نقدٌ مدعم بالحجة هادف إلى الإقناع.

وبالمرور بالعصور الأدبية أرى الحِجاج يتجلى واضحا في كثير من مؤلفات تلك العصور؛ كالأدب الصغير والكبير لابن المقفع، والبيان والتبيين للجاحظ، ودلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني في دفاعه عن قضية النظم وغيرها، كذا في الموازنة للآمدي، والوساطة للجرجاني؛ فالحجاج بوصفه نظرية يتوصل من خلالها إلى الإقناع والإمتاع معا فن أصيل عند العرب.

وإن كان من رد على القائلين بحداثة نظرية الحجاج، وأن منشأها غربي كقولهم: "نظرية الحجاج في اللغة نظرية دلالية حديثة... تندرج هذه النظرية ضمن تيار حديث في الأدبيات اللسانية"[2]؛ يكفيني نص أبي هلال العسكري القائل: "ومن وضوح الدلالة، وقرع الحجة قول الله –سبحانه–: "وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ" فهذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها؛ لأن الإعادة ليست بأصعب في العقول من الابتداء، ثم قال تعالى: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ"، فزادها شرحا وقوة؛ لأنّ من يُخرِج النارَ من أجزاء الماء وهما ضدان؛ ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه، ثم قال تعالى: "أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ" فقوّاها أيضا، وزاد في شرحها، وبلغ

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٩/ ٣٤٠ ط١ دار الكتب المصرية بالقاهرة– مصر ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨م.

(٢) اللغة والحجاج لأبي بكر العزاوي ص١٠ ط١ العمدة في الطبع– الدار البيضاء– المغرب ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٦م.

بها غاية الإيضاح والتوكيد؛ لأنّ إعادة الخلق ليست بأصعب في العقول من خلق السموات والأرض ابتداء."[١]

فقد وضَّح العسكري تدرج الآيات الكريمات في الإقناع بالحجج على مصداقية البعث، فلم تترك سبيلا للإنكار إلا وأغلقته في وجه سالكه؛ مما يؤكد قدم نظرية الحجاج، وأصالتها العربية.

(١) كتاب الصناعتين ص٢٢.

المبحث الأول

الوسائل الحجاجية المنبثقة من علم المعاني

١- أدوات التأكيد.

أ) (إنَّ).

إن الحجاج باستخدام أدوات التأكيد أشبه باختلاج النفس المتلقية واستكشاف حاجتها إلى الإقناع، وذاك نمط دقيق من الكلام يهتدي إلى دروبه الخبير بفنون القول؛ فالكلام تعلو نبرته، ويتزين بالتأكيد عندما يُخَامر المخاطب الشك، أو عندما يراد ربط أواصر الكلام، وهنا تتجلى أدوات التأكيد؛ لتأخذ دورها في عملية الإقناع، ومن المشهور في ذلك قصة خلف الأحمر عندما اعترض على بشار في بيته:

بَكِّرَا صَاحِبيَّ قَبْلَ الهَجِير إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ في التَّبْكِيرِ[١]

قائلا: "لو قلت يا أبا معاذ مكان إنَّ ذاك النجاح" "بكرا فالنجاح" كان أحسن، قال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية؛ فقلت: إن ذاك النجاح كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: بكرا فالنجاح كان هذا من كلام المولدين، ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة في شيء. قال: فقام خلف فقبل بين عينيه."[٢]

فقد تجوَّل بشار بفطرته السليمة في نفس المتلقي؛ فتيقن أن الشطر الأول من البيت استدعى سؤالا عن علة التبكير؛ فأكد الشطر الثاني بـ(إنَّ)، ولو ترك التأكيد ما أقنع السامع بحجته.

والتوكيد من أساليب إظهار البرهان الساطع؛ للدلالة على صدق القضية المطروحة؛ مما يُهيئ النفس للاقتناع بالحجة.

---

(١) ديوان بشار بن برد- شرح وتقديم: محمد الطاهر بن عاشور ٣/ ٢٠٣ ط١ لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة- مصر ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧م.

(٢) الأغاني ٣/ ١٩٠.

- ففي القرآن الكريم في قول الله تعالى: "قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ"(١)، طرحت ابنة سيدنا شعيب –عليه السلام– قضية استئجار سيدنا موسى – عليه السلام– للعمل، وأظهرت حجتها مؤكدة بـ(إن) قائلة: "إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ"؛ لتجعل من التأكيد وسيلة لإقناع أبيها –عليه السلام–، وذاك القول المؤكد منها "حكيم جامع لا يُزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان –أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك–؛ فقد فرغ بالك، وتمَّ مرادك."(٢)

فاستخدام (إنَّ)؛ للإقناع بالحجة، ثم في جعل لفظة (خير) اسم (إنَّ) لا خبرها؛ لبيان أن الخير المرغوب فيه، والمؤكد حدوثه حاصل في استئجار القوي الأمين.

والتعبير بالموصول (مَن)؛ للتفخيم من قدر سيدنا موسى –عليه السلام–؛ إحكاما للحجة؛ ببيان أنه جدير بذلك العمل؛ لفخامة قدره لقوته وأمانته، ولذا استخدم الفعل الماضي في "اسْتَأْجَرْتَ"؛ لتحقق وقوع الفعل؛ فقد جُرِّب في عمله بالمصادفة لما سقى لابنتي سيدنا شعيب –عليه السلام–؛ فأثبتت التجربة أنه قوي في عمله أمين بعفته، والجملة من التذييل الجاري مجرى المثل، فهي تأكيد على تأكيد يُسرِع عملية الإقناع، ويُمكِّنها من النفس؛ فيطمئن لها القلب، وترسخ الحجة في العقل بالقبول عن يقين بها وإيمان.

- وفي الحديث الشريف: "عَنِ الحَسَنِ، عَنِ الأَحْنَفِ بن قَيْسٍ، قَالَ: ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرَةَ فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ، قَالَ: ارْجِعْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ –ﷺ– يَقُولُ: إِذَا التقَى المُسلِمَان بِسَيفَيهِما؛ فالقَاتِلُ والمقتُولُ في النَّارِ، فقُلتُ: يا رسُولَ اللهِ هَذَا

(١) القصص آية (٢٦).

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري – راجعه: يوسف الحمادي ٣/ ٤٠٣ ط١ مكتبة مصر بالقاهرة– مصر ١٤٣١ هـ ٢٠١٠م.

القاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتولِ؟! قَالَ: إِنَّهُ كانَ حَرِيصًا على قَتْلِ صَاحبِهِ."[1]

فالحكم الذي طرحه النبي -ﷺ- يتطلب وسائل إقناعية؛ لغرابته؛ فمن المعلوم أن القاتل في النار، أما كون النار مصيرا للمقتول فذاك أمر عجيب؛ لذا استفهم الراوي: "هَذَا القاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتولِ؟!"، وهو استفهام تعجبي ينقل لنا حالة التعجب والدهشة التي اعترته، وهنا يأتي دور النبي محمد -ﷺ- في الإقناع بالحجة مجيبا: "إِنَّهُ كانَ حَرِيصًا على قَتْلِ صَاحبِهِ" مستخدما (إنَّ) للتأكيد القاطع للظن والشك والتردد، وكأنها مفتاح باب الإقناع، مُتبِعا إياها بفعل الكون الماضي وخبره (حريصا)؛ ليوضح تحقق الحرص الذي كان من المقتول على قتل صاحبه؛ بمعنى أن النوايا قد اتحدت وتلاقت في بوتقة واحدة؛ ألا وهي إراقة الدماء، فلو سبق المقتول صاحبه لكان هو القاتلَ، وتظهر بلاغة النبي -ﷺ- في الإقناع بإضافة المصدر (قَتل) إلى لفظ (صاحبه)، فلم يقل: (كان حريصا على القتل)؛ ليوضح أن المقاتلة لم تكن للقصاص، ولا لحق من حقوق الله -تعالى- بل كانت لمسلمَين ليس بينهما ما يُوجِب القتال من حدٍ أو قصاص، وقد سبق أحدهما الآخر مع حرصٍ كان من المقتول على قتل صاحبه؛ فهما في النار، فقد أقنعنا النبيُّ -ﷺ- وأقنع السائلَ بالحكم في جملة تحمل الحجة الساطعة بإيجاز بليغ.

- ومن الشعر قول النابغة الذبياني:

"تَعْصِي الإلَهَ وَأنت تُظْهِرُ حُبَّه ... هذا لعمرك فِي المَقَالِ بديع

لَو كُنت تصدق حُبَّه لأطعته ... إِنَّ المُحبَّ لِمن يُحب مُطِيع"[2]

---

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -ﷺ- وسننه وأيامه (صحيح البخاري) للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري- تحقيق: محمد زهير بن ناصر -باب المعاصي من أمر الجاهلية١/ ١٥(رقم٣١) ط١ دار طوق النجاة ببيروت -لبنان ١٤٢٢ هـ .

(٢) مقطوعة من بيتين من ديوان النابغة الذبياني- تقديم: عباس عبد الساتر ص١١٧ ط٣ دار الكتب العلمية ببيروت- لبنان ١٤١٦ هـ ١٩٩٦م .

فالنابغة يطرح لنا قضية مخالفة الظاهر للباطن، والأقوال للأفعال، فمن يُظهِر حبَّه لله – تعالى– قولا وهو مُنغمس في المعاصي والشهوات فعلا؛ ينأ حبه عن الصدق والإخلاص، وقد رمى النابغة إلى إقناع المتلقي بحجته عن طريق التأكيد بـ(إن) قائلا:

لَـو كُـنـت تصـــدق حُـبَّـه لأطـعـتـه إِنَّ الـمُـحـبَّ لِـمـن يُـحـب مُـطِـيـع"

ليتخذ من (إنَّ) المؤكدة وجملتها تعليلا كوسيلة للإقناع بصدق حجته، ثم إن المفردات تتعانق فينظم محكم لتدعم (إنَّ)، فاستخدام المضارع (يحب) يبين تكرار حدوث الحب وتجدده فلا يَفتُر وإن مرَّ عليه الزمان، بينما استخدم الاسم (مطيع) بدلا من الفعل (يُطيع)؛ ليفيد ثبوت الطاعة من المحب لمن يحب؛ فحصولها دائم ثابت لا يتغير.

ب) النفي والاستثناء.

يُعد النفي والاستثناء من طُرق التوكيد التي يلجأ إليها الكاتب كوسيلة من وسائل الإقناع بالحجة، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: "وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: ما هو إلا كذا، وإن هو إلا كذا؛ فيكون لأمر ينكره المخاطب ويشك فيه"[١]، فتلك الأداة لها "من الاقتدار والحدة ما يجعلها قادرة على أن تحمل تلك المعاني التي يُراد بها لفت المخاطب إلى حقيقة قد أغفلها، وسار في أمره على غير هداها."[٢]

والنفي والاستثناء لا يقف عند حد التوكيد بل إنه يُستعمل كوسيلة للكشف عما وراء المعاني مما يختلج في النفس.

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – قرأه وعلق عليه / محمود محمد شـاكر ص٣٣٢ ط٣ مطبعة المدني بجدة– السعودية ١٤١٣ هـ ١٩٩٢م .

(٢) دلالات التراكيب دراسة بلاغية د. محمد محمد أبو موسى ص١٢٢ ط٤ مكتبة وهبة بالقاهرة– مصر ١٤٣١ هـ ٢٠١٠م.

- ففي قول الله تعالى: "فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ"(١)

قوله تعالى: "مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا" حجة قوم سيدنا نوح –عليه السلام–، ضربوها جدلا؛ تكذيبا لنبوته، واهمين أن الرسول لابد أن يكون ملكا لا بشرا، أو "تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر؛ لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ وموازٍ لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم؟"(٢)، وكذا استرذلوا المؤمنين، فقالوا: "وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا"؛ احتقارا لهم، فاستخدام النفي والاستثناء هنا ليس للتأكيد فقط، بل ولإظهار ما وطن في نفوسهم من الكفر، والاحتجاج له؛ بغية الإقناع، ومن هنا أتى الرد عليهم بالوسيلة نفسها ناقدا اعتقاد حتمية أن يكون الرسول ثريا بالمال، قال تعالى: "وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ"(٣) أي؛ إذا كُنت بشرا مثلكم، وقد اصطفاني الله –تعالى– عليكم بالرسالة ولست أغناكم، فلا حاجة لي بأموالكم، ولا أدعي النبوة طمعا فيما عندكم "إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ"، والنفي هنا بـ(إنْ) وهي "آكد من (ما) في النفي"(٤)، مما يضفي على القصر تأكيدا على تأكيد؛ فيقوي حجة سيدنا نوح – عليه السلام–، ويضحض حجتهم، أما الذين آمنوا ممن احتقروهم؛ لقلة مالهم وضعف جاههم؛ فالله أعلم بما في قلوبهم، وهم ملاقوا ربهم فيجازيهم بإيمانهم، مذيلا الآية الكريمة بقوله تعالى: "وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ"؛ لِما بدا منهم من حجج واهية بنوها على بادي الرأي من غير إمعان النظر ودقة التفكر.

(١) هود آية ٢٧.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٥٦.

(٣) هود آية ٢٣.

(٤) ينظر: معاني النحو د. فاضل السامرائي ٢/ ٢٥٧ ط١ دار الفكر للطباعة بعمان ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م.

- وفي إقامة الحجة بالدليل على أن الحسد أشد ضراوة من العداوة؛ يقول الجاحظ: "الحاسد لا يزول عن طريقته إلا بزوال المحسود عليه عنده، والعداوة تحدث لعلة، فإذا زالت العلة؛ زالت معها."(١)

أراد الجاحظ أن يبرهن على قضيته التي فحواها أن الحسد أشد وطأة من العداوة؛ وينقد فكرة تساويهما في الدرجة؛ فاستخدم طريق النفي والاستثناء وسيلة للإقناع، جاعلا غاية انتهاء الحسد زوال النعمة، بمعنى أن المحسود بين أمرين –إلا ما شاء الله–: إما حصول الألم والكدر في التمتع بالنعمة منغوصة بعين الحاسد، أو زوالها ومن ثم يزول الحسد عليها؛ وكلاهما شر، وذاك الحكم يختلف عن العداوة، فالعداوة تحدث لسبب إذا زال السبب زالت معه العداوة لا النعمة.

ثم انتقل الجاحظ إلى دليل آخر؛ لإقناع المخاطب بالفارق بين الحسد والعداوة، وأن الحسد أشد ضررا قائلا: "ومن الدليل على أن الحسد آلم وآذى وأوجعُ وأوضعُ من العداوة؛ أنه مُغرى بفعل الله –عز وجل–، والعداوة عارية من ذلك، لا تتصل إذا اتصلت إلا بأفعال العباد، ولا يُعادى على فعل الله –تباركت أسماؤه–؛ ألا ترى أنك لم تسمع بأحدٍ عادى أحدا؛ لأنه حسن الصورة، جميل المحاسن، فصيح اللسان، حَسنُ البيان، وقد رأيت حاسد هذه الطبقة وسمعت به، وهم كثير تعرفهم بالخبر والمشاهدة؛ فهذا دليل على أن الحسد لا يكون إلا عن فساد الطبع، واعوجاج التركيب، واضطراب السُوس."(٢)

والجاحظ في حجته هذه يستخدم النفي والاستثناء أيضا قائلا: "والعداوة ... لا تتصل إذا اتصلت إلا بأفعال العباد"، مؤكدا حجته بالقصر، فالعداوة تنشأ بين البشر لأفعال وأقوال منبعها منهم ومردها إليهم على عكس الحسد؛ فالحاسد يحقد على المحسود لعطايا الله –تعالى– ومنته

(١)رسائل الجاحظ– تحقيق: د. محمد طه الحاجري ص١٧١ ط١ دار النهضة العربية ببيروت– لبنان١٩٨٣م.

(٢) السابق ص١٧١: ١٧٢.

عليه، كأن يهبه وجها وسيما أو لسانا فصيحا، وعلى مثل ذلك يُقاس، كأن يهبه مالا أو ولدا أو غير ذلك من نعم الله – تعالى– على عباده؛ مما يؤكد أن الحسد أنقع سما من العداوة، يقول الجاحظ: "فهذا دليل على أن الحسد لا يكون إلا عن فساد الطبع، واعوجاج التركيب، واضطراب السُوس" مؤكدا دليله بالنفي والاستثناء الذي لعب دورا بليغا؛ لإقناع السامع بأن الحسد تركيب عوج في النفس ينفس من فساد الطبع، واضطراب الحالة النفسية للحاسد، التي بلغ من فسادها واستحكام مرضها الاعتراض على فعل الله –تعالى– وعطاياه في صورة بث السم الداخلي للحاسد، ونشره ونفاذه إلى أرواح وأبدان ضحايا مرضى القلوب.

٢-أسلوب الحكيم.

الحِجاج إقناع بالعقل والمنطق، يُستخدَم فيه الحوار أو الجدال، وقد فرق بينهما العلماء؛ فهما يلتقيان في كونهما مناقشة بين طرفين، ويفترقان في كون الحوار: "مراجعة الكلام والحديث بين طرفين ينتقل من الأول إلى الثاني ثم يعود إلى الأول دون أن يكون بين هذين الطرفين ما يدل بالضرورة على وجوب الخصومة"(١) أما الجدال: فهو "المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة...، وأصله من جدلت الحبل؛ أي أحكمت فتله، ومنه الجدال، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه، وقيل: الأصل في الجدال: الصراع، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة؛ وهي الأرض الصلبة." (٢)

وذاك على الأغلب، فقد تتبادل اللفظتان في الدلالة؛ فيأتي (الجدل) للحديث الحسن الطيب، ومنه قول الله تعالى: "فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ"(٣)، وقوله تعالى: "وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"(٤)

ومن الأساليب البلاغية المستخدمة في الحوار والجدال بهدف التأثير؛ أسلوب الحكيم، يستخدمه المتكلم بغية إقناع المخاطب عن طريق تحويل مسار الحوار من سبيل إلى سبيل آخر دون تعنت أو إكراه؛ فيستخدم فيه الوسيلة الأنسب لحال المخاطَب والتي تصل به إلى محط الاستسلام للفكرة عن قناعة، بطريقة صرف نظره عما تشبث بعقله، وتحويل فكره إلى منظور

(١) في أصول الحوار / الندوة العالمية للشباب الإسلامي ص١١ ط١ دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة- مصر ١٤١٩ هـ /١٩٩٨م.

(٢) المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني- تحقيق: صفوان عدنان الداودي ص١٨٩ ط١ الدار الشامية- بيروت-لبنان ١٤١٢ هـ ١٩٩١م.

(٣) سورة هود٧٤-٧٥.

(٤) سورة النحل جزء آية ١٢٥.

آخر، فأسلوب الحكيم هو: "تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده؛ تنبيها على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب؛ بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له."(١)

- ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى: "قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ"(٢)

فقد استفهم سيدنا زكريا –عليه السلام– عن كيفية حدوث ذلك الأمر مستبعدا أو متعجبا؛ لأسبابٍ منها: بلوغه الكبر (قيل كان له تسعٌ وتسعون سنة، وقيل اثنتان وتسعون، وقيل مائة وعشرون، وقيل غير ذلك)(٣)، ومنها: كون امرأته عاقرا، ومنها بُعد زمن الدعاء "حيث كان بين الدعاء والبِشارة ستون سنة؛ وكان قد نسِيَ دعاءَه"(٤)، فلما تعجب من حدوث الحمل، واستفهم عن كيفية حصوله رغم وجود تلك المعوقات؛ نقد الله –عز وجل– فكرته عن الأسباب والكيفية، ونقل مسارها إلى فكرة أخرى أولى بالاعتقاد واليقين؛ ألا وهي أن الله القادر –جل علاه– شاء حصول ذلك، ومتى شاء الله –تعالى– وقع ما شاء، فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون مستخدما لفظ الجلالة (الله) في قوله –تعالى–: "اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ"؛ ليوحي بالقدرة المطلقة والعزة والهيمنة على عكس ما استخدمه سيدنا زكريا –عليه السلام–؛ فقد استخدم لفظ الربوبية "قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ"؛ مناجاة لله –عز وجل– وتضرعا وتبتلا إليه، ثم تلا لفظ الجلالة

(١) الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح للخطيب القزويني– شرح: محمد عبد المنعم خفاجي م١/ ٢/ ٩٤ ط٣ دار الجيل– بيروت د.ت.

(٢) آل عمران آية ٤٠.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ٢/ ٣٣ ط١ دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان د.ت.

(٤) السابق ٢/ ٣٣.

الفعل المضارع (يفعل) الدال على تكرار حدوث أفعال القدرة المطلقة وقتما يشاء الله، وقد قدَّم لفظ الجلالة عليه؛ للاختصاص قصرا حقيقيا تحقيقيا؛ فالله وحده المنفرد بتلك الصفة؛ وهي القدرة المطلقة على فعل المعجزات، ومن ثم توافق استخدام لفظة (ما) الموصولة مع تراكيب الجملة؛ لإرادة العموم والشمول؛ لتدعم بدورها الدلالة على مطلق القدرة الإلهية في نظم موجز معجز بليغ أتى على طريق أسلوب الحكيم؛ لينقد فكرة رسخت في الأذهان، وهي فكرة ضرورة توافر الشروط المعروفة المعينة لحدوث الحمل، ويستبدلها بقاعدة أخرى تعلو على حدود المنطق البشري؛ وهي أن الله يفعل ما يشاء وقتما يشاء، ومن هنا حدث الإقناع بالحجة ليس لسيدنا زكريا –عليه السلام– فقط بل وللمؤمنين كافة.

- وفي الحديث الشريف "عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللهِ –ﷺ–: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ –ﷺ–: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ."(١)

فقد سأل الرجل عن وقت قيام الساعة بسؤال مباشر أتى على حقيقته، يترقب به ردا تعيينيا يحدد وقت قيامها، فنقد الرسول–ﷺ–سؤاله محولا فكره إلى مسار آخر على طريق الأسلوب الحكيم مستفهما منه بقوله: "مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟"؛ لينقل اهتمامه من الرغبة في معرفة وقت قيام الساعة إلى ما هو أجدى له نفعا؛ وهو التزود بزاد تلك الرحلة حتى إذا ما بلغها وجد ما يسره، وقد فهم الرجل مراد النبي –ﷺ– واقتنع به، فأتى رده موضحا لاقتناعه بالحجة؛ وهو ضرورة التزود في الدنيا بما ينجيه في الآخرة، فقال: "حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ"، وهي جملة جامعة موجزة جمعت الإيمان بالقلب والتطبيق بالعمل؛ لأن من أحب الله التزم بما أمر الله –تعالى– به، واجتنب ما نهى

(١) صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري ت: محمد فؤاد عبد الباقي، باب المرء مع من أحب ٤/ ٢٠٣٢ (رقم ٢٦٣٩) ط١ دار الكتب العلمية ببيروت، لبنان ١٤١٢ هـ ١٩٩١م.

عنه، ومن أحب رسوله -ﷺ-اتبع سنته؛ ومن هنا كرَّمه النبي -ﷺ-ببشارة تنشرح لها النفس وتطيب بها الروح قائلا -صلى الله عليه وسلم-: "أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ"، وكأني بالأسلوب الحكيم أرى الإقناع في ألطف صُوَرِه وأبهى حلته، يتجلى فيه الإقناع متحليا بإمتاع النفس، لا ترى فيه من نُقِدت فكرته وصُرِف نظره إلى اتجاه آخر متأففا ولا ضجرا، بل تراه مقتنعا بالحجة الجديدة ليس فقط بل ومستمتعا بها.

٣-الاستفهام.

يعد أسلوب الاستفهام من الأساليب التي تفجر طاقات معنوية متعددة الدلالة، وخفايا نفسية كامنة في شعور السائل والمجيب، فهو أسلوب تشاركي يُقحِم فيه المتكلمُ المخاطبَ، وبذلك تتم عملية التواصل الحواري بهدف الإقناع بالحجة، فهو دعوة إلى اختبار العقول وتفنيد أفكارها؛ بغية الوصول إلى عملية الإقناع؛ لكونه مُثيرا للتفاعل ومن ثم مُنبها إلى الحقائق، والاستفهام يحمل في طياته نقدا مدعما بالحجة هادفا إلى الإقناع بها.

- ففي القرآن الكريم يقول الله -تعالى-: "وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"[١]

فقد زعم اليهود أن النار لن تمسهم إلا أياما قليلة، بلغ من قلة عددها وانعدام التأثر بعذابها أن استخدم الذكر الحكيم حكاية عنهم لفظة (المس) دون (اللمس) أو (الإصابة) ؛ لأنها أخف ضررا فـ(المس: لصوق، واللمس: لصوق مع الإحساس[٢])، والإصابة من الصوب، "والصاد

(١) سورة البقرة آية ٨٠.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري- تحقيق: محمد إبراهيم سليم ص١٨١ ط١ دار العلم والثقافة بالقاهرة- مصر ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م.

والواو والباء أصل صحيح يدل على نزول شيء واستقراره قراره"[١]، فهي أشد وقعا من المس واللمس، لذا وردت لفظة (المس) على ألسنتهم إلى جانب وصف الأيام بالمعدودة؛ تخفيفا على تخفيف؛ فرد عليهم الذكر الحكيم ناقضا ومبطلا زعمهم بإيجاز وببلاغة نظم لا نظير لها واضعا إياهم بين استفهامين من حسن التقسيم أقاما عليهم الحجة؛ أحدهما: "قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ"، وهو استفهام إنكاري توبيخي يحملهم على الإقرار بأنهم لم يتخذوا عند الله عهدا، ولا قدرة لهم على قول ذلك، فإذا تيقنوا منه وجدوا أنفسهم أمام استفهام آخر بعد (أم) المعادلة لهمزة الاستفهام يحسم به الجدال، وهو قوله تعالى: "أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"، وهو استفهام تقريري يوضح افتراءهم ويقطع حبالهم ويقيم عليهم الحجة بأوجز عبارة وأقصر سبيل.

وفي قوله تعالى: "وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ"[٢]

بلغ الكبر والطغيان باليهود مبلغا أودى بهم إلى الاحتجاج على إنكار الرسالة المحمدية بزعم باطل وحجة واهية، قائلين: "مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ"، وهم في ذلك كما يقول الذكر الحكيم: "وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ"، أي؛ "وما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده واللطف بهم حين أنكروا بعثة الرسل والوحى إليهم، وذلك من أعظم رحمته وأجلّ نعمته"[٣]، فأبطل

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٣١٧.

(٢) الأنعام آية ٩١.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٤.

الذكر الحكيم حجة الخصم بإثبات نقيضها قائلا –جل شأنه–: "قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ"، فإذا كان جوابهم أن الله –جل علاه– أنزل التوراة على سيدنا موسى –وليس لهم جواب غير ذلك–؛ فقد أقاموا الحجة على أنفسهم بالإقرار والإذعان، ثم إن بلاغة النظم تدعم الحجة في الآية الكريمة، فلم يقل الذكر الحكيم: قُل من أنزل التوراة؟ بل جمع بين التوراة ومَن نزلت عليه التوراة؛ فذكَّرهم بنبيهم موسى –عليه السلام– قائلا: "قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى"، ثم ذكَّرهم بخسيس فعلهم حين جعلوا التوراة قراطيس يبدون بعضها ويخفون أكثرها؛ توبيخا لهم؛ فأخرس ألسنتهم بإقامة الحجة عليهم صاغرين بتوبيخهم في الوقت نفسه، مذيلا الآية الكريمة بخاتمة قطعت عليهم كل سبيل، وكشفت قدرهم من الذل والمهانة قائلا –جل شأنه– : "قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ".

والقرآن الكريم له أسلوبه المُمتع في الحجاج بالرد على الخصوم ناقدا بإفحامهم أو إقناعهم بأيسر طريق، فقد زعم المشركون أن الملائكة إناث، قال تعالى: "وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا"[1]، فرد عليهم الذكر الحكيم بإيجاز على طريق الاستفهام الإنكاري ناقضا اعتقادهم بقوله تعالى: "أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ"[2]؛ فأحبط قولهم، وحسم الجدال بأنهم يشهدون بما لا يعلمون، والاستفهام إنكاري يحمل في ثناياه التوبيخ للخصم على سفه اعتقاده دون حجة، مذيلا الآية الكريمة بقوله –تعالى–: "سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ" مستخدما سين الاستقبال؛ ليقرب بها الوعيد، والمضارع (يسألون) الدال على استحضار الصورة؛ تهويلا.

(١) الزخرف جزء آية ١٩.

(٢) الزخرف جزء آية ١٩.

- وفي الحديث الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ –ﷺ– قَالَ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا."(١)

رمى النبي –ﷺ– إلى إقناع الصحابة بفضل الصلاة، فحاورهم مستفهما "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ والرؤية عين اليقين، والتكرار النابع من صيغة المضارع (يغتسل) تدل على تكرار وقوع الحدث، وقد حددها النبي –ﷺ– بخمس مرات بعدد الصلوات الخمس، ثم استفهم على سبيل التقرير منكِّرا لفظة (شيء)؛ للتقليل، وقد أقروا؛ فقالوا: "لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ"؛ فحملهم بالإقرار على الاقتناع بالشبيه الذي ضرب له المثل قائلا –صلى الله عليه وسلم–: "فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا" مكررا بصيغة المضارع (يمحو) محو الخطايا الشيء بعد الشيء كما تتكرر الصلاة الفرض بعد الفرض.

(١) صحيح مسلم باب فضل الصلوات الخمس ١/ ٤٦٢ (رقم٦٦٧).

٤-التذييل.

عرَّف البلاغيون التذييل بأنه: "تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها؛ للتوكيد"(١)

والتذييل إلى جانب إفادته التوكيد يدخل في عملية الإقناع بالحجة، بل إن إفادته التوكيد تدعم ذلك وتقويه "فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكد عند من فهمه ...، وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة، والمواقف الحافلة؛ لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكد عند الذهن اللقن، وصح للكليل البليد."(٢)

- ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى: "وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ"(٣)

"نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ حِينَ قَالُوا نَتَرَبَّصُ بِمُحَمَّدٍ رَيْبَ الْمَنُونِ"(٤)، فرد عليهم الذكر الحكيم ناقدا "وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ"، ثم تدرج في الإقناع بالحجة من الأدنى إلى الأعلى على طريق التذييل بنوعيه الجاري مجرى المثل وغير الجاري، وبدأ بغير الجاري مجرى المثل قائلا –جل شأنه– "أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ" مباغتهم بالتذييل المتضمن للاستفهام التقريري؛ ليحملهم على الإقرار بمضمون المعنى المؤكد بالتذييل، فإذا مات النبي–ﷺ–فإنهم ميتون أيضا، ومن ثم ينتقل إلى الضرب الجاري مجرى المثل؛ ليقطع عليهم كل سبيل في تمنيهم وطول أملهم صادمهم بجملة التذييل الأخرى قائلا –جل علاه– : " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ" مستخدما الجملة الاسمية؛

---

(١) الإيضاح للخطيب القزويني –شرح: محمد عبد المنعم خفاجي م١/ ٣/ ٢٠٥ .

(٢) كتاب الصناعتين ص٣٧٣.

(٣) الأنبياء ٣٤: ٣٥.

(٤) معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي– تحقيق: عثمان جمعة ضميرية– سليمان مسلم الحرش ٥/ ٣١٨ ط٤ دار إحياء التراث العربي ببيروت– لبنان ١٤١٧ هـ ١٩٩٧م.

لتدعم التذييل في ثبوت المعنى؛ إلى جانب لفظة (كل) الدالة على الشمول والعموم، معبرا بالاسم "ذَائِقَةُ" بدلا من الفعل (تذوق)؛ مما يفيد ثبوت المعنى وحصوله دفعة واحدة لا على تجددٍ وتكرار؛ فنقد تفكيرهم، ونقض أقوالهم، وأفحم الخصم وأقنع المخاطبين.

- وفي الشعر يقول النابغة الذبياني:

"ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تلمه على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذبُ[١]"

ففي البيت السابق يستعطف النابغةُ النعمانَ بن المنذر معتذرا بقوله: "ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تلمه على شَعَثٍ"؛ أي: "لا تحتمله على ما فيه من خلل ودَرْء"[٢]، وأصل الشعث: "التفرق والانتشار، والأشعث: المغبر الرأس"[٣] فقد شبَّه ما بالنفس من العيب والخلل بالشعث، بجامع التفرق والاختلاط ما بين السيء والجيد، كما يصيب الغبار الرأس وينتشر عليه؛ فيغير من مظهره ويخلط حسنا بسيئ، ثم استعار الشعث للعيوب والخلل على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وهدفه من الاستعارة استمالة قلب النعمان، وطلب العفو، لذا واجهه بحقيقة مستقاة من تجارب الحياة، وهي أنك إن عاديت من الأخوة كل ما ظهر لك منه عيب؛ فلن تستبقي أحدا، فكل بني آدم خطَّاء، ولا يخلو أحدهم من العيوب، ولأجل أن يؤكد النابغة تلك الحقيقة، ويصل إلى عملية الإقناع ذيَّل بيته بجملة أخرى مؤكدة لمنطوق الجملة الأولى، وجارية مجرى المثل قائلا: "أيُّ الرجالِ المهذبُ"، ويعني بها: أي الرجال يخلو من العيوب البشرية؟ فتلك عملية اعتذار مغلفة بالحجة؛ بهدف الإقناع، سلك له سبيل التذييل؛ كوسيلة لغوية تحمل في ثنايا ألفاظها ما يصل بالمخاطب إلى بر الاطمئنان للفكرة عقب الاقتناع بها.

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٢٨ من قصيدة مطلعها: أتاني أبيتَ اللعن أنك لُمتني وتلك التي أهتمُّ منها وأنصَبُ

(٢) لسان العرب مادة (شعث).

(٣) مختار الصحاح لزين الدين أبي بكر الرازي مادة (شعث) ط٢ دار السلام بالقاهرة- مصر ١٤٣٤ هـ ٢٠١٣م.

المبحث الثاني

الوسائل الحجاجية المستقاة من علم البيان

١-التشبيه التمثيلي.

يعمل التمثيل وسيلة للحجاج في بعض المواطن التي تفتقر إلى دعم المعنى؛ للإقناع به، ويبرز ذلك حيثما يحتل التمثيل من المعاني أعقابها، يقول الإمام عبد القاهر: "واعلم أنّ مما اتفق العقلاءُ عليه، أن التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها...، وإن كان حِجاجًا، كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبَيَانه أبْهر."[١]

فالتمثيل في موطن الإقناع حجة ناصعة، ونور ينفذ إلى القلوب؛ فيضيء شعاعه الأذهان، يُقَرِّب البعيد، ويجلي الخفي، ويستميل القلوب؛ فيذعن له المُعارض عن اقتناع، هذا إلى جانب ما يضفيه من الإمتاع بالحس الجمالي، فالحجاج بالتمثيل يحقق مزيجا من الإقناع والإمتاع معا.

- ففي القرآن الكريم يقول الله -عز وجل-: "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"[٢]

فقد شبَّه الذكر الحكيم حال من اتخذ غير الله معتمَدًا بحال العنكبوت اتخذت بيتا؛ لإقناع السامع بسوء اختيارهم، وفداحة فعلهم القبيح، والذي سيودي بهم إلى حتمية الهلاك.

والإقناع بالحجة عن طريق التمثيل في الآية الكريمة بدا واضحا على مر العصور قديما؛ لما أيقنوا معرفته من وهن بيت العنكبوت في مصاد الرياح، وتحت وطأة أصابع الأطفال العابثة،

(١) أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر ص١١٥ ط٣ دار المدني بجدة- السعودية ١٤١٣ هـ ١٩٩٢م.

(٢) سورة العنكبوت آية ٤١.

وازداد الأمر وضوحا بما أثبته العلم الحديث من بيان الضعف المعنوي لبيت العنكبوت الذي تقوم ببنائه الأنثى، وفي الآية الكريمة نسب الذكر الحكيم بناء البيت إلى أنثى العنكبوت، فقال – جل شأنه–: "كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا"، ومن ثم تنصب للذكر شراكها، "وعندما يفرغ من... التلقيح تقوم على الفور بقتله، ومن ثم افتراسه..؛ إذ إن أنسجة الذكر تعد مُهمة في دورة إنضاج البيض...، ومثلما هي قصة جزاء سنمار... يقوم الصغار بقتلها –الأم– والتغذي عليها؛ لكي يقوى ساعدهم ويشتد عودهم."[١] ، فبيتها من أسوأ البيوت الاجتماعية وأوهنها، لا مكان فيه لرب الأسرة، ولا حنان للأم كما في سائر المخلوقات، فبيتها لا عماد له ولا بقاء، وقد "تبين حديثا أن النسيج العنكبوتي لا يدوم أكثر من ليلة واحدة، ولا يصلح بعدها لصيد الطرائد؛ لأنه يجف، وتفقد مادته اللاصقة خصائصها، ويتمزق خرقا بالية عند الفجر بعد أداء مهمته؛ إذن هو بيت في منتهى الضعف، بيت لا يدوم إلا ليلة واحدة أو أقل."[٢] ومن هنا حصل الإقناع بمضمون المعنى عن طريق ضرب المثل الذي أصاب الهدف بحسن انتقاء عنصر المشبه به، ومواءمته للمعنى المراد، "ولضرب الأمثال واستحضار المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق؛ حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبيّ."[٣]

- وفي الحديث الشريف عن "النُّعْمَانَ بن بَشِيرٍ –رضي الله عنه– عَنِ النَّبِيِّ –ﷺ– قَالَ: مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُم أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُم أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا

(١) بيت العنكبوت لفتحي الضو ص١١ ط١ مطبعة جزيرة الورد بالقاهرة– مصر ٢٠١٥م.

(٢) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة – يوسف الحاج أحمد ص٥٠١ ط٢ دار ابن حجر بدمشق– سوريا ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣م.

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري ١/ ٧٢.

فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا."[1]

أراد النبي -ﷺ-البرهنة على إثبات حقيقة اجتماعية يغفلها كثير من الناس: وهي أن سكوت القائمين على حدود الله -تعالى- في المجتمع إذا انتُهكت بفعل الخبائث والمنكرات؛ بحجة أنها فُعِلَت من غيرهم؛ فلا تعنيهم، لمن أسوأ المعتقدات، فقد أراد النبي -ﷺ- قلب ذلك المُعتقد، وإثبات نقيضه، فالسكوت على مثل ذلك ليس من إيثار السلامة كما يظنون، بل إنه مدخل لهلاك الأفراد جميعهم؛ من قام بالفعل القبيح ومن سكت عنه.

هذا وقد تمثلت الوسيلة البيانية التي استخدمها النبي -ﷺ-في إقامة الحجة والإقناع بها في التشبيه التمثيلي؛ حيث شبَّه هيئة القائمين على حدود الله -تعالى- يمنعون الواقعين فيها من نشر الفواحش والرذائل والمنكرات؛ فينجون جميعا، أو يتركونهم وشأنهم؛ فيهلكون جميعا، بهيئة قوم اقترعوا على سفينة؛ فوقع سهم بعضهم في سكنى الطابق الأسفل، وبعضهم في الأعلى، فكلما مرَّ من في الأسفل بسقياهم على من في أعلاها تأفقوا؛ فهموا بإحداث خرق في أسفل السفينة، فإن تركهم من في أعلاها وما يريدون؛ هلكوا جميعا، وإن منعوهم؛ نجوا جميعا" وهكذا قياسُ "التمثيل"، تَرى المزيةَ أبداً في ذلك تَقعُ في طريقِ إثباتِ المعنى دون المعنى نَفْسِه، فإذا سمعْتَهُم يقولون: إنَّ مِنْ شأنِ هذه الأجناسِ أنْ تُكسِبَ المعاني نبلًا وفضلًا، وتُوجِبَ لها شَرَفًا، وأن تُفخِّمها في نفوسِ السامعين، وتَرْفَع أَقْدارَها عند المخاطَبِين، فإنّهم لا يُريدون الشَّجاعةَ والقِرى وأشباهَ ذلك مِنْ مَعاني الكَلِم المُفْردةِ، وإنما يَعْنون إثباتَ معاني هذه الكلم لمن ثبت له ويخبر بها عنه."[2]

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٣٩ كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه (رقم٢٤٩٣).

(٢) الدلائل ص٧١.

فالتمثيل عمل على نقل الفكرة إلى نطاق أكثر وضوحا مما هي عليه، فـ"الانتقال من المعنوي المجرد إلى المحسوس المتخيل أشبه باجتياز هاوية بين عَدْوَتين على جسر قصير يوفر الطريق، ويُؤَمن المجتاز."(١)، ثم في تتضافر تلك المفردات اللغوية جنبا إلى جنب؛ ليخرج التمثيل بتلك التقنية العالية من التصوير البياني، فالنبي -ﷺ- يفتتح حديثه بضرب المثل مطابقا بين صنفين "القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ"، "وَالوَاقِعِ فِيهَا"؛ لينبه أُذن السامع منذ الوهلة الأولى إلى التمييز بين حال الفريقين الذين يرمزان إلى لخير والشر الحاصل في المجتمع، ثم ينقل تلك الفكرة المعنوية المجردة إلى الصورة الحسية المشاهدة بقوله: "كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ" منكرا لفظة (قوم)؛ للعموم؛ فالغرض الذي يرمي إليه الحديث يشمل البشر في الدنيا بأسرها حتى غير المسلمين، لا أبالغ إن قلت ذلك؛ فحتى المجتمعات غير المسلمة إن تركوا الفاسد ولم يأخذوا على يده انتشر الفساد وهلكوا جميعا، فالنبي -ﷺ- يضع أسسا اجتماعية إصلاحية تسعد بها البشرية، أما الطباق في قوله: "فَأَصَابَ بَعْضُهُم أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُم أَسْفَلَهَا" فيشير من طرف خفي إلى ذلك التفاوت الطبقي بين أفراد المجتمع في الدنيا، وقد يكون التفاوت ماديا، أو أخلاقيا، والذي قد يدفع بعض أفراد الطبقة الأدنى ماديا أو أخلاقيا إلى فعل ما يخالف الشرع والعُرف؛ بغية الوصول إلى الراحة المزعومة ظنا، وهذا ما جال بخاطر أصحاب الطابق الأسفل من السفينة، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا" وهنا تأتي نتيجة التمثيل في الإقناع بالفكرة قائلا: "فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا" مستخدما الكناية في قوله: "أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ" كناية عن استخدام القوة وعدم التهاون في التعامل معهم، مستخدما حرف الجر (على)؛ ليهدف إلى بيان الاستعلاء بالحق بتطبيق العدالة،

(١) التصوير البياني د/ حفني محمد شرف ص١٥١ط١ مكتبة الشباب بالقاهرة- مصر ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠م.

مذيلا الحديث الشريف بأسلوب المقابلة بين معنيين: (يتركوهم وأخذوا على أيديهم) و(هلكوا ونجوا) والتي تصل بنا إلى المقارنة بين حالين مختلفين إما النجاة، أو التهاون الذي يصل بالمجتمع إلى الهلاك، ومن هنا كان للتمثيل متسقا مع أنماط الدلالات البلاغية لتراكيب الحديث دورا عظيما في عملية الإقناع بمضمون الفكرة المجردة.

- وفي الشعر يقول المتنبي:

وَمَا أَنَا مِنهُم بِالعيشِ فِيهِم وَلكن مَعْدِنُ الذهَبِ الرَّغَامُ[1]

فالمتنبي يتبرأ من كونه منهم يتصف بأخلاقهم، أو يتحلى بصفاتهم مع كونه يعيش بينهم ولكنه لايشبههم، وتلك قضية مثيرة للشك، لا يصدقها العقل، ولا يقتنع بها إلا بدليل ينفي الريب؛ لذا رفع الشاعر الشك عن قضيته بالتمثيل الذي أقام الحجة على صدق قضيته؛ وهو أن مقام الذهب ومحل استخراجه التراب وليس منه؛ لأنه أشرف قدرا، فكذلك الشاعر يقيم بينهم وليس منهم؛ لعلو قدره وحسن خلقه، ففائدة التمثيل هنا ليست في الإمتاع بالمعنى فحسب، ولكنه "يُفيد فيه الصِّحة، وينفي الرَّيْب والشكَّ، ويُؤْمِن صاحبه من تكذيب المخالِف، وتهجُّم المنكرِ، وتَهَكُّم المعترض، وموازنتُه بحالة كَشْفِ الحجاب عن الموصوف المُخبَرِ عنه حتى يُرَى ويُبصرَ، ويُعلَم كونهُ على ما أثبته الصِّفة عليه موازنةٌ ظاهرة صحيحة."[2]

وقد أتى التمثيل في البيت بعد استيفاء المعنى؛ لتقريره في النفس، وإقامة الحجة عليه، فأضحى "كالبرهان الذي تثبت به الدعوى، والحجة الناصعة التي تدحض كل زعم، والدليل الذي يمسح الريب باليقين."[3]

---

(١) من قصيدة للمتنبي مطلعها: فؤادٌ ما تُسليه المُدامُ وعمرٌ مثلُ ما تهبُ اللئامُ/ ديوان المتنبي ص١٠١، ط١ دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت- لبنان ١٤٠٣ هـ /١٩٨٣م.

(٢) الأسرار ص١٢٤.

(٣) التصوير البياني د. حفني محمد شرف ص١٢٤ .

ومن طريف ما ورد من الشعر في محاولة إثبات المعنى عن طريق التمثيل: اختلاف الشعراء حول الحبيب الأول، يقول أبو تمام:

"نَقِّل فؤادكَ حيثُ شِئتَ مِن الهوَى ... مَا الحبُّ إلا للحَبيبِ الأَولِ

كَمْ مَنزل فِي الأَرْضِ يَألفه الفَتَى ... وَحنينه أَبدًا لأولِ مَنزِلِ"(١)

"وقال آخر:

اعلَقْ بآخرِ مَن كَلَفْتَ بحبهِ ... لا خَيْر في حُب الحبيبِ الأولِ

أَتَشك في أَن النَّبي محمدا ... خَير البريةِ وهو آخرُ مُرْسَلِ"(٢)

ويقول ديك الجن الحمصي:

"نَقِّل فُؤادكَ حيثُ شِئت فَلن تَرَى ... كهوَى جَديدٍ أو كَوصلٍ مُقبلِ

مَا لِي أَحنُّ إلى خَرابٍ مُقفر ... دَرَسَت معالمُهُ كأن لم يُؤهَل

مِقَتِي(٣) لمنزلي الذي اسْتَحدثته ... أمَا الذي ولَّى فَليسَ بمنزِلِي"(٤)

فتلك تجارب ثلاث تنبع من عمق الشعور لدى الشعراء الثلاثة، يبرهن كل واحد منهم على صحة قضيته بالتمثيل؛ لإقناع السامعين، أولها: تجربة أبي تمام التي انتصر فيها للحبيب الأول، ويبدو أنه كان حبا صادقا ترك أثرا لا يمحوه الزمان مهما كثر عدد زائرات القلب من بعده؛ لذا

(١) من مقطوعة مطلعها: "البين جرعني نقيع الحنظل والبين أثكلني وإن لم أثكل"/ ديوان أبي تمام –قدَّم له:أ. عبد الحميد يونس– أ. عبد الفتاح مصطفى ص٣٨٧ ط١ مطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة– مصر ١٣٦١ هـ/ ١٩٤٢م.

(٢) البيتان في الصناعتين غير منسوبين ص٣٨٥، والبيت الثاني في ديوان صفي الدين الحِلّي مع اختلاف في صيغة البيت الأول / ينظر: ديوان صفي الدين الحِلّي ص٤٣٩ ط١ دار صادر ببيروت– لبنان د.ت.

(٣) المقة: المحبة/ اللسان مادة (ومق).

(٤) من قصيدة مطلعها: "اشرب على وجه الحبيب المُقبل وعلى الفم المتبسم المتقبل"/ ديوان ديك الجن الحمصي– تحقيق: د.أحمد مطلوب– أ.عبد الله الجبوري ص١٨٤ ط١ دار الثقافة ببيروت–لبنان ١٣٨٣ هـ.

ضرب المثل؛ للإقناع بصدق قضيته؛ فشبه حال بقاء ذكرى الحبيب الأول خالدة تهيمن على القلب لا يمحوها حب جديد، بحال الإنسان يتنقل من مسكن إلى آخر إلا أن حنين قلبه يظل مرهونا بأول منزل حلَّ به.

وثانيها: تجربة صفي الدين الحِلِّي التي انتصر فيها لآخر حبيب يسكن القلب مستعينا بالتمثيل بكون النبي محمد -ﷺ- خير البرية وهو آخر مرسل، وثالثها: تجربة ديك الجن الحمصي، والتي انتصر فيها لأحدث حبيب أيضا، مشبها حاله مع الحبيب الجديد بحاله مع منزل جديد استحدثه لا يزال عامرا؛ فأحبه، بينما نسي منزلا تقادم عهده؛ فأقفر، فحاله مع القديم كأن لم يُؤهل.

إن التمثيل هنا لا يلعب دور توضيح المعنى أو رسم الصورة فحسب، بل إنه يقرر في الأذهان فكرة ترسخ عالقة حد الاقتناع بها والاطمئنان لها، ورغم تناقض الفكرتين حول الميل إلى الحبيب الأول، أو الركون إلى الحبيب الأخير إلا أن كلتا الفكرتين تجد رواجا وقبولا لدى المستمعين بحسب ميولهم الروحية، وبحسب ملابسات الحُبين الأول والأخير؛ أيهما أصدق وأقوى، وبحسب التكوين الداخلي النفسي لمشاعر المُحِب بكونه دائم الحنين شديد التعلق، أو بطيء التعلق سريع النسيان.

٢-الاستعارة.

"إنك لترى بها الجمادَ حيّـًا ناطقـًا، والأعجمَ فصيحـًا، والأجسامَ الخُرسَ مُبينةً، والمعاني الخفيّةَ باديةً جليّةً، وإذا نظرتَ في أمر المقاييس وجدتَها ولا ناصر لها أعزُّ منها، ولا رَوْنَق لها ما لم تَزِنْها، وتجدُ التشبيهات على الجملة غير مُعْجِبَةٍ ما لم تكُنْها، إن شئت أرتك المعانيَ اللطيفةَ التي هي من خبايا العقل كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون، وإن شئتَ لطَّفتِ الأوصاف الجسمانية حتى تعود رُوحانية لا تنالها إلاّ الظنون."(١)

- ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى: "أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"(٢)

استهل الذكر الحكيم الآية الكريمة بالاستفهام التقريري، وهو من الوسائل اللغوية التي تحمل المخاطب على الإقرار، فهو وسيلة حجاجية تهدف إلى الإقناع بالحجة، والمسجد الذي "أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى قيل: هو مسجد قباء أسسه رسول الله -ﷺ-، وصلى فيه أيام مقامه بقباء، وهي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وخرج يوم الجمعة، وهو أولى، لأنّ الموازنة بين مسجدي قباء أوقع، وقيل: هو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة"(٣)، أما المسجد الذي أُسِس بنيانه على شفا الجرف الهار فيعني به مسجد الضرار، وقصته: "أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْمُنَافِقِينَ بَنَوْا صُورَةَ مَسْجِدٍ قَرِيبًا مِنْ مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَأَرَادُوا أَنْ يصلى لهم رسول -ﷺ- فيه حتى يروج لَهُمْ مَا أَرَادُوهُ مِنَ الْفَسَادِ وَالْكُفْرِ وَالْعِنَادِ، فَعَصَمَ اللهُ رَسُولَهُ -ﷺ- مِنَ الصَّلَاةِ فِيه؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ إِلَى تَبُوكَ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْهَا فَنَزَلَ بِذِي أَوَانٍ- مَكَانٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ سَاعَةٌ- نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ

(١) الأسرار ص٤٣.

(٢) التوبة آية ١٠٩.

(٣) الكشاف ٢/ ٣١١.

فِي شَأْنِ هَذَا الْمَسْجِدِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ من قَبْلُ"(١)

والآية الكريمة تقارن بين حال طائفتين؛ إحداهما مؤمنة أقامت بنيانها على أساس محكم من الحق المتمثل في تقوى الله ورضوانه، والأخرى كافرة أقامت بنيانها على أساس من الباطل المتمثل في الكفر والنفاق، مقارنة برز فيها من الوسائل البلاغية الاستفهام التقريري مدعما بالاستعارة، فقد قابل بين طرفين مُشبِّها في الطرف الأول التقوى ورضوان الله بالأرض الصلبة والقاعدة المتينة، وحذف المشبه به من قوله تعالى: "أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ"، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو البنيان والتأسيس على سبيل الاستعارة المكنية، وهو بذلك يجعل التقوى والرضوان لأهلها أساسا وعمادا ممهدا صلبا قويا لا ينهار، بل يدعم ما رُفِع عليه من بنيان، هذا ومن جانب آخر يُعَرِّض بالطرف المقابل، وهم أهل مسجد الضرار بأنهم ليسوا كذلك؛ لأنهم على أساس هارٍ، فهم في الطرف المقابل من الاستفهام في قوله تعالى: "أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ" المُدعَّم بالاستعارة التمثيلية؛ حيث شبَّه هيئة من اعتمد عمله في دنياه على الباطل والنفاق كفرا، بهيئة من أسس بنيانه على شفا من جرف هار بجامع انعدام النفع وحصول الضرر؛ لانعدام الثبات في كل، فالاستعارة لا ترمي إلى مجرد انعدام النفع، بل وتهدف إلى بيان حصول الضرر أيضا، يستفاد ذلك من دلالات تلك المفردات التي تجاورت وتعانقت في نظم محكم بليغ؛ حيث بدأها بـ(أم) المعادلة التي تكشف النقاب عن طرف آخر للاستفهام يتقابل مع الطرف الأول ويختلف عنه؛ ليضع أمام المخاطب موازنة جلية بين حالين لطائفتين من البشر لكل منهما عاقبة تختلف عن الأخرى، ثم يستخدم الفعل الماضي

(١) البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ٥/ ٢١ ط١ دار الفكر، بيروت- لبنان ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م.

(أَسَّسَ)؛ ليدل على تحقق وقوعه؛ مما يعود على المعنى ببيان تعمد اتباع طريق الباطل، والسير فيه باتخاذه منهجا ومرجعا، ثم بالإظهار في موضع الإضمار في تكرار لفظة: "بُنْيَانَهُ"، وقد سبق ذكرها، ولو أضمر لقال: (أم من أسسه على شفا جرف)، ولكنه أعاد ذكرها صريحة في موطن الإضمار؛ للتنبيه على اختلاف البناءين، وتباين مصيرهما، ثم استخدم لفظة "شَفَا"، "وشفا كل شيء حَرْفه"(١)، وإنما عبَّر بلفظة "شَفَا" دون لفظة حرف أو جانب أو غيرها؛ لأنها -والله أعلم بمراده- إلى جانب دلالتها على معنى الحرف تدل على "الإشراف على الشيء"(٢)؛ يقول ابن فارس: "الشين والفاء والحرف المعتل يدل على الإشراف على الشيء؛ يقال: أشفى على الشيء إذا أشرف عليه"(٣)، وعليه قوله تعالى: "وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا"(٤)، فلفظة "شَفَا" أفادت أنهم على الحرف مشرفين على السقوط، وقد أضافها الذكر الحكيم إلى "جُرُفٍ هَارٍ"، "والجُرْف والجُرُف: ما تَجرَّفَتهُ السيول وأكلته من الأرض"(٥)، و"الهَارِ: الساقط الضعيف"(٦) فذلك وصف دقيق لضعف الباطل وانهياره؛ حيث جعل القائم على الباطل كالقائم على حرف بقايا رخوة جرفتها السيول؛ فهي خائرة متصدعة مشرفة على الانهيار، ثم رشَّح للاستعارة بقوله -تعالى-: "فَانْهَارَ بِهِ"؛ فالانهيار يناسب الجرف؛ وكأنه سقط ببنيانه حقيقة إلا أن سقوطه ليس في باطن الأرض، ولكنه "فِي نَارِ جَهَنَّمَ"؛ وكأنه لما بنى بالنفاق والباطل بيتا بناه على حافة من جرف جهنم؛ فهوى به فيها، ثم ذيَّل الآية الكريمة بقوله -تعالى-: "وَاللهُ لَا يَهْدِي

(١) اللسان مادة (شفو).

(٢) مقاييس اللغة ٣/ ١٩٩.

(٣) السابق ٣/ ١٩٩.

(٤) آل عمران جزء آية ١٠٣.

(٥) اللسان مادة (جرف).

(٦) السابق مادة (هور).

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"؛ ليبين أنهم ظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا غيرهم بنفاقهم، وأن ما استحقوه من العقاب لم يجلبه لهم سوى أنفسهم بطغيانهم، فقد أوجزت الآية الكريمة الكثير من المعاني في ألفاظ قليلة جمعت بين الإمتاع ببلاغة النظم والإقناع بالحجة المطروحة في سياق الاستفهام المدعم بالاستعارة التي نقلت الفكرة المجردة إلى حيز الصورة المرئية؛ فجعلت من الباطل بنيانا على شفا ليس له أساس غير الجرف الهاري، فأي عاقل يرى أن في ذلك البنيان خيرا؟! إن الاستعارة هنا لم تعمل على الإقناع فقط بل على نسف أي اعتقاد مخالف لمنطوق الحجة، فبلاغة الاستعارة لا تتوقف على حد الإمتاع الجمالي، ولكنها إلى جانب ذلك تعمل على إقناع المخاطب بالحكم، وإفحام الخصم بالعقل والمنطق؛ لإفادتها إيجاب القضية المطروحة، وتأكيد الحكم بها، يقول الإمام عبد القاهر -رحمه الله- في حديثه عن الاستعارة: "ليستِ المزيةُ التي تَراها لقولك: رأيتُ أسداً على قولك: رأيتُ رجلاً لا يتميزُ عن الأَسد في شجاعته وجُرأته أنك قد أَفدْتَ بالأول زيادة في مساواته الأسد، بل أن أَفَدْتَ تأكيداً وتشديداً وقوةً في إثباتك له هذه المساواةَ، وفي تقريرِكَ لها، فليس تأثيرُ الاستعارةِ إذن في ذاتِ المعنى وحَقيقَتِه، بل في إيجابهِ والحُكْم به."[1]

- وفي الحديث الشريف "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- أَتَى الْمَقْبُرَةَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا؛ قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ، فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ؛ أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ،

(١) الدلائل ص٧١.

فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ؛ فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا."(١)

فالحديث الشريف طرح قضية غريبة على الصحابة الكرام؛ فحواها أنهم ليسوا إخوان النبي -صلى الله عليه وسلم- حين قال -ﷺ-: "وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا"، وكان ذلك مما أثار عجبهم، واستدعى استفسارهم؛ فقالوا: "أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟!"، والاستفهام تعجبي يحمل في ثناياه الدهشة مما قيل، والتطلع لمعرفة الحقيقة؛ فأجابهم النبي-ﷺ-بما يزيل العجب، ويضع محله الاطمئنان قائلا-صلى الله عليه وسلم-: "أَنْتُمْ أَصْحَابِي"، والجملة في ذلك اسمية تفيد الثبوت، وكأنه يثبت الاطمئنان والسكينة في قلوبهم، ولكن الأمر لا يزال فيه شيء من الغموض حيث قال-ﷺ-: "وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ"، مما أثار فيهم حب المعرفة قائلين: "كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟" وهنا يأتي دور الاستعارة في الإقناع بحملهم على الإقرار فيما لم يعلموه ولم يروه؛ بقياسه على ما علموه وما رأوه قائلا -صلى الله عليه وسلم-: "أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟"؛ حيث استعار هيئة تمييز الرجل إبله على الرغم من اختلاطها بإبل غيره؛ لعلامة تميزها؛ وهي كونها غُرا مُحَجلة بين إبل دُهم بُهم، لهيئة تمييز الرسول -ﷺ-أمته من بين الأمم؛ لعلامة تميزهم؛ وهي كونهم غُرا مُحجلين من أثر الوضوء والسجود، والجامع: هيئة مكونة من تمييز عنصر مختلط بين عناصر أخرى؛ لسمة فيه تميزه عن غيره، فقد لعبت الاستعارة التمثيلية دورها في إقناعهم بالقياس مع أن الأمر يتعلق بالمستقبل؛ فلما أذعنوا قالوا: "بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ"، وقد جمعت الاستعارة بين ركني الإقناع بالقياس، والإمتاع ببلاغة نظمها، ودقة اختيار صورتها؛ فبدأها بالتشويق عن طريق جذب الانتباه بالاستفهام الكائن في قوله: "أَرَأَيْتَ"، والوارد في أسلوب حواري يفرض على الطرف الآخر المشاركة في الحوار، ثم في تلك الفنيات المُحسنة

(١) صحيح مسلم بَابُ اسْتِحْبَابِ إِطَالَةِ الْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ فِي الْوُضُوءِ ١/ ٢١٨ (رقم٢٤٩).

للأسلوب، والتي أتت عفو الخاطر دون تكلف؛ فقد جمعت لفظتي "دُهْمٍ بُهْمٍ" بين سلاسة النطق، وحلو النغم؛ لما بينهما من الجناس المضارع، ثم إنهما أيضا أظهرا عنصر المفارقة الذي اتضح به سر تمييز أمته عن غيرها من الأمم حين طابق بهما قوله: "غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ"، فأمر الإمتاع بطباق التدبيج الكائن بين "غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ" و"دُهْمٍ بُهْمٍ" لا يقف عند ذلك الحد، بل منه تشرق أضواء الإقناع بأنها علامة تتميز بهما أمة محمد -ﷺ- عن باقي الأمم قائلا: "فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ"؛ فتشارك الإمتاع مع الإقناع بالحجة عن طريق نظم الاستعارة التمثيلية التي وفَّت وأجادت.

ومن تمام البيان في الحديث الشريف أن ختمه بتوضيح حال عصاة تلك الأمة، وكأنه بذلك يقارن بين طائفتين: من آمن واستجاب؛ فتطهر وسجد لله -تعالى-، ومن عصى وتكبر؛ فأهمل وبدَّل، فأما من تطهر وسجد؛ فله السقيا من حوض النبي-ﷺ-، قال -عليه الصلاة والسلام: "وَأَنَا فَرَطُهُمْ[1] عَلَى الْحَوْضِ" أي سابقهم أهديهم وآخذ بأيديهم، وذلك تكريم عظيم منقطع النظير، وأما من عصى وبدل فحقه الزود عن الحوض، قال-ﷺ-: "أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ؛ أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ؛ فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا" وهنا ينقل لنا التشبيه التمثيلي مشهدا تصويريا مُفعَم بالحركة المتمثلة في الصراع بين العصاة يرغبون في وِرْد الحوض والملائكة تدعهم دعا؛ حيث شبَّه زود العصاة عن الحوض، بهيئة زود البعير الضال عن إبل أحدهم، والوجه: هيئة إبعاد عنصر لا ينتمي إلى باقي العناصر، بينما يناديهم النبي -ﷺ-فيقال له: "إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ" وهو خبر إنكاري مؤكد بـ(إنَّ)، واسمية الجملة، و(قد) والماضي؛ والتأكيد يحمل في ثناياه دلالة قاطعة على أنهم لا يستحقون شرف ورود الحوض، فالتشبيه التمثيلي نقل لنا صورة حركية قصصية تُشوق السامعين لمعرفة خاتمة

(١) فَرَطَ القوم: سبقهم إلى الماء/ مختار الصحاح لأبي بكر الرازي مادة (فرط) .

ذلك المشهد الحركي المفعم بالشد والجذب، والتقريب والإبعاد، وهنا وبعد بيان الملائكة بأنهم عصوا وبَدلوا يوضح النبي -ﷺ- خاتمة ذلك الصراع بمزيد من العقاب؛ فيقول -صلى الله عليه وسلم-: "سُحْقًا سُحْقًا"، مكررا اللفظ الدال على معنى البعد؛ للتأكيد على خروجهم من ذلك التكريم خالين الوفاض.

- ومن الشعر قول الحطيئة:

"ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَخ حُمرُ الحواصلِ لا ماء ولا شجر
غَيَّبتَ كاسبَهم في قعرٍ مظلمةٍ فاغفرْ عليكَ سلامُ اللهِ يا عمرُ"(١)

البيتان قالهما الحطيئة في استعطاف عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لما سجنه؛ لهجائه الزبرقان بن بدر، والأبيات في العقد الفريد مع اختلاف طفيف في بعض الألفاظ، ففيه: "وقال الحطيئة لما حبسه عمر بن الخطاب في هجائه للزبرقان بن بدر أبياتا يمدح فيها عمر ويستعطفه، فلما قرأها عمر عطف له، وأمر بإطلاقه، وعفا عما سلف منه، والأبيات:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَخ زُغب الحواصلِ لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبَهم في قعرٍ مظلمةٍ فاغفر عليكَ سلامُ اللهِ يا عمرُ"(٢)

بدأهما الشاعر بالاستفهام، وأسلوب الاستفهام يستدعي حوارا ولو على سبيل التخييل؛ في حال عدم الحصول على جواب من الطرف الآخر، فهو في تلك الحالة يثير انفعال المخاطب بفحوى السؤال، وهو ما اتَّبعه الشاعر في بيتيه؛ حيث أثار الانفعال النفسي للخليفة بإشعاره بالذنب، وهنا يأتي دور الاستعارة في تأكيد ذلك الشعور؛ لإقناعه به، فلم ينظم الشاعر الاستفهام

(١) مطلع قصيدة في الاعتذار من ديوان الحطيئة- دراسة: د. مفيد محمد قميحة ص١٠٧ ط١ دار الكتب العلمية ببيروت- لبنان ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣م.

(٢) العقد الفريد لأبي عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ٦/ ١٤٤ط١ دار الكتب العلمية ببيروت- لبنان ١٤٠٤ هـ.

بألفاظ الحقيقة اللغوية، لم يقل: ماذا تقول لأولادٍ بذي مَرَخ؟ ولكنه قال: "ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَخ[1]؟"، فاستعار لفظة (الأفراخ) لأولاده الصغار بجامع الضعف والحاجة إلى العائل في كلٍ، ثم رشَّح للاستعارة فقال: "حُمرُ الحواصلِ لا ماء ولا شجر"، وفي رواية: "زُغب الحواصلِ"، وكلاهما يُدعِّم المعنى، ويضاعف من شعور الخليفة بالذنب رغم أنه لم يظلمه، ولكن خشيته وهو الخليفة العادل على ضياع الصغار؛ لغياب العائل جعله يتراجع عن حكمه؛ فعفا عنه وأطلق سراحه، ومن هنا آتت الاستعارة أُكلها، وحققت المرجو منها، وذاك هو فن الإقناع، فرُبَّ صاحب حق ضاع حقه؛ لعييه، ورب مُستعطِف ليس له حق حاز فوق ما يتمنى؛ لطلاقة لسانه وحسن تعبيره، وقدرته على الإقناع، فالشاعر انتقى من اللغة لفظة (أفراخ) بما تحمله من معاني الضعف والعوز؛ ليلعب بالاستعارة على وتر الإحساس لدى الخليفة، ثم رشحها بقوله: "زُغب الحواصلِ لا ماء ولا شجر"؛ فاكتمل التفاعل النفسي لديه بالتعاطف مع الصغار والخوف عليهم؛ فعفا عنه وبذلك حقق الشاعر مطلبه؛ بتفننه في الإقناع بالحجة عن طريق الاستعارة، فهي تمتلك من القوة الإقناعية ما يجعلها من أنجح الوسائل الحجاجية؛ للوصول إلى إذعان المخاطب، فالاستعارة الإقناعية هي "تلك الاستعارة التي تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي."[2]

(١) "ذو مَرَخ: واد بين فدك والوابشيّة خضر نضر كثير الشجر"/ معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ٥/ ١٠٣ ط٢ دار صادر، بيروت د.ت.

(٢) اللغة والخطاب لعمر أوكَان ص١٣٤ ط١ إفريقيا الشرق بالدار البيضاء- المغرب ٢٠٠١م.

٣- الكناية والتعريض.

تعد الكناية من الوسائل البلاغية التي يؤكد بها المتكلم الحكم عن طريق التلازم بين المعنيين؛ المعنى المذكور، والآخر المراد إثباته، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله-: "ليس المعنى إذا قلنا: إن الكنايَة أبْلغُ منَ التَّصريح، أَنك لمَّا كنَّيْتَ عن المعنى زدْتَ في ذاته، بل المعنى أَنك زِدْتَ في إثباتهِ، فجَعلْتَه أبلغَ وآكَدَ وأَشَدَّ، فليستِ المزيةُ في قولهم: جَمٌّ الرماد، أنّهُ دلَّ على قِرًى أكثرَ، بل المعنى إنك أَثبتَ له القِرى الكثيرَ من وجهٍ هو أَبلغُ، وأوجَبْتَه إيجابًا هو أَشدُّ، وادَّعيْتَه دَعْوى أنتَ بها أَنْطَقُ، وبِصِحَّتها أَوْثَقُ."[١]، فالكناية تؤكد الدعوى، وتوثق صحتها، وذاك ما يتطلبه الحجاج؛ لغرض الإقناع بمنطوق الحكم، وكذا التعريض غير أن "التلازم بين المعنيين في التعريض ينبع من الموقف الخاص الذي يُقال فيه الكلام، وهو بهذا الاعتبار لا يأتي إلا في التركيب."[٢]

- ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى: قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ"[٣]

يتجلى الأسلوب الحواري في الآية الكريمة في صورة حجاجية؛ حيث بدأت بفعل القول، والمقوول جملة إنشائية استفهامية تتطلب جوابا؛ والاستفهام تقريري، ومن بلاغة نظم السؤال استخدام لفظ الإشارة (هذا) للقريب؛ لتحقير الفعل، وهو كسر الأصنام، فكسرها من وجهة نظرهم عمل حقير يستحق فاعله العقاب، وفي نسبة الأصنام إليهم في لفظة "بِآلِهَتِنَا"، دلالة على اعتزازهم بها، والدفاع عنها حد الاستماتة، أما الرد على الاستفهام، والذي جاء على لسان سيدنا

(١) الدلائل ص٧١.

(٢) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية د. شفيع السيد ص١٢٢ ط٣ دار الفكر العربي بالقاهرة- مصر ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨م

(٣) الأنبياء ٦٢: ٦٣.

إبراهيم –عليه السلام– فهو رد تهكمي؛ استهزاء وسخرية من عقولهم، فلم يقصد بقوله: "بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا" نسبة الفعل إلى الصنم الأكبر، ولكن قصد التعريض؛ حيث "عَلَّقَ خبره بشرط النطق، كأنه قال: إنْ كان ينطق فهو فعله على طريق التبكيت لقومه"(١)؛ ليحملهم على التأمل في حقيقة ما يعبدون، فإذا انقشع الضباب عن أعينهم، تبين لهم أنهم يعبدون من دون الله ما لا يعقل ولا يقدر على الزود عن نفسه، فكيف يزود عن رعاياه؛ فغاية سيدنا إبراهيم –عليه السلام– من التعريض إقامة الحجة عليهم بالعقل والمنطق.

- وفي الحديث الشريف "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ –ﷺ–، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ وُلِدَ لِي غُلَامٌ أَسْوَدُ، فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ(٢)؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنَّى ذَلِكَ؟ قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ."(٣)

فقول الرجل: "وُلِدَ لِي غُلَامٌ أَسْوَدُ" من التعريض بالطعن في نسب الولد إليه؛ فقد عبَّر الرجل عن حاجته بأيسر طريق، وبأوجز لفظ، فالتعريض هنا يحمل كثيرا من المعاني التي أبى الرجل أن يصرح عنها باللفظ الظاهر، والتي تحمل في طياتها جبلا ثقيلا من الهموم ينوء به عاتق الرجل، فجاء رد النبي –ﷺ– بجملة استفهامية تستنطق الرجل؛ لتحمله على الإقرار بمنطوق ما اقتنع به قائلا –ﷺ–: "هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟" والاستفهام على حقيقته يستنطق به المخاطب في حوار يهدف إلى إقناعه بما يرمي إليه النبي –ﷺ–، فلما أجاب الرجل بنعم أتبع النبي –ﷺ– الاستفهام بثانٍ

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي– تحقيق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ٤/ ٩٠ ط١ دار إحياء التراث العربي – بيروت– لبنان ١٤١٨ هـ.

(٢) الأَوْرَق من الإبل: الذي في لونه بياض إلى سواد، والوُرْقَة: سواد في غُبرة، وقيل سواد وبياض كدخان الرِّمْث، يكون ذلك في أنواع البهائم، وأكثر ذلك في الإبل/ اللسان مادة (ورق).

(٣) صحيح البخاري بَابُ إِذَا عَرَّضَ بِنَفْيِ الوَلَدِ٧/ ٥٣ (رقم٥٣٠٥).

قائلا: "مَا أَلْوَانُهَا؟" فأجاب الرجل بما يفيد أنها حُمر، فاستنطقه النبي -ﷺ-بسؤال ثالث ثم رابع حتى قال الرجل: "لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ"، يعني به سبب وجود الأورق بين حمر الإبل، و"لَعَلَّه نَزعه عرق؛ أَي: جذبه إِلَيْهِ وَأظْهر لَونه عَلَيْهِ، يَعْنِي: أشبهه...، والعرق: الأَصْل من النّسَب"[١]؛ أي" أن لونه إنما جاء؛ لأن في أصوله البعيدة ما كان فيه هذا اللون"[٢]

وهنا يتجلى القياس في أبهى صورة، قائلا -ﷺ-: " فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ" فقد اتَّبع النبي -ﷺ- طريق الإقناع بالقياس عن طريق استنطاق المخاطب حد الإقرار بثبوت ما أنكره عن طريق التعريض، فقد عمل التعريض في بداية الحديث على جذب انتباه السامع إلى معنى يختبئ خلف الألفاظ، يقرره الرجل عن طريق إثبات المعنى المراد بثبوت المعنى الظاهر من الألفاظ للوهلة الأولى، فكونه أبيض اللون ووُلِد له طفل أسود قاعدة انطلاق إلى المعنى المراد؛ وهو الطعن في نسب الولد، فقد استخدم الرجل من التعريض وسيلة بلاغية؛ لطرح حجته؛ بهدف الإقناع بها بما يترتب عليها من أحكام، ومع أن حجته رُدَّت عليه بطريق القياس والاستنطاق بالاستفهام، إلا أن التعريض كان مفتاحا لباب الحجاج في الحديث الشريف، والذي انتهى بإقناع الرجل بعكس ما كان يتوقع.

- ومن الكناية في النثر قول عثمان بن عفان لعمرو بن العاص -رضي الله عنهما- لما عزله عن ولاية مصر، وولاها غيره: "يا عمرو، أشعرت أن اللّقاح[٣] درّت بعدك ألبانها؟ فقال: لأنكم أعجفتم

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسى الغيتابى العينى ٢٠/ ٢٩٤ ط١ دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان د.ت.

(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لشهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني ٨/ ١٧٣ ط٧ المطبعة الكبرى الأميرية بالقاهرة- مصر ١٣٢٣ هـ.

(٣) اللقاح: الإبل بأعيانها، الواحدة: لَقُوح، وهي الحلوب/ اللسان مادة (لقح).

أولادها."[١]

فقد كنى سيدنا عثمان -رضي الله عنه- عن كثرة الخراج بكثرة درِّ اللقاح لألبانها، يُشعره أن من تولى مصر بعده أحسن ولايتها عنه، فقد عبَّر عن مراده بما وراء اللفظ من المعنى المكنون، يقول الإمام عبد القاهر -رحمه الله- عن المعاني الكامنة المستترة في ألفاظ الكنايات: "فإنَّكَ في جميعِ ذلك لا تُفيدُ غرضَك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدلك اللفظُ على معناه الذي يُوجِبُهُ ظاهرهُ، ثم يَعْقِلُ السامعُ من ذلك المعنى على سبيلِ الاستدلالِ معنًى ثانيًا هو غَرَضُك."[٢]

وقد وردت الكناية في رحاب الاستفهام، ينتظر بها ردا من عمرو بن العاص -رضي الله عنه-، فردَّ عليه عمرو قضيته، وسلب منه الحجة بالطريق نفسه الذي سلكه عثمان -رضي الله عنه-، وهو طريق الإقناع بالكناية مُجيبا: "لأنكم أعجفتم أولادها" أي أرهقتم أهل مصر بالخراج، وحرمتموهم الرزق، وهي كناية عن ظلم الوالي بعده لرعيته، فالكناية لعبت دورا بليغا في إقامة الحجة، فلم تقتصر على الجانب الجمالي المتمثل في الإمتاع ببلاغة نظمها واختيار ألفاظها المعبرة بدقة عن المعنى المراد، ولكنه أدخلها في جانب الحجاج؛ فجعلها وسيلة بلاغية لحجته بهدف الإقناع؛ فحققت مرادها؛ حيث رفعت عنه تهمة التقصير في ولاية مصر من جانب، وبينت ظلم الوالي بعده لأهلها من جانب آخر، فـ"الكناية لها في البلاغة موقعٌ عظيم؛ فإنها تفيد الألفاظ جمالا، وتكسب المعاني ديباجة وكمالا...، وإن أدخلتها من أجل الحِجاج كان البرهان بها أوضح وأنور، والسلطان بها أقدر وأقهر، والإفحام بها أشهر، والتسلط أعظم وأبهر."[٣]

(١) العقد الفريد ٣/ ٢٩٥.

(٢) الدلائل ص٢٦٢.

(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام يحيى بن حمزة العلوي- مراجعة وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين ص٢٠٣ ط١ دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان ١٤١٥ هـ ١٩٩٥م.

- ومن الكناية في الشعر قول المتنبي:

"تَشْـتَكي مـا اشْـتكَيتُ من أَلمِ الشـو ... قِ إليهـا والشـوقُ حيثُ النُحولِ"(١)

"أي أنا أشتكي الشوق، ونحولي يدل على ذلك، وهي غير ناحلة، فليست مشتاقة."(٢)فقد كنى عن كذب محبوبته في ادعائها الشوق بقوله: "والشوقُ حيثُ النُحولِ"، فكونها كاذبة في ادعائها الحب قضية طرحها المتنبي، ودليله المقنع بصدق قضيته؛ أن الشوق يلازمه النحول، فقلما تجد من براه الحب سمينا، وللشعراء في التعبير عن ذاك المعنى باع طويل منه قول السري الرفاء:

"فـداؤك مـن أوْرَدتـهُ مَـنْـهَـلَ الـردَى ... ووِرْدُ الـرَّدى لـلـعـاشـقِـيـن يَـطِـيـبُ

ومـا مـات حتى أنْحَـل الحـبُ جسـمَـهُ ... فـلـم يـبـق فِـيـه لـلـتـرابِ نصـيـبٌ"(٣)

وقول العباس بن الأحنف:

"انـظـرْ إلـى جَسـدٍ أضـرَّ بِـه الـهـوى ... لـولا تـقـلُّـب طَـرفِـهِ دَفـنُـوهُ"(٤)

فإثبات المتنبي لكذبها بالدليل عن طريق الكناية آكد وأبلغ وأشد إقناعا من الاقتصار على ظاهر اللفظ، يقول الإمام عبد القاهر –عليه رحمة الله– "أما الكنايةُ، فإنَّ السببَ في أنْ كانَ للإثباتِ بها مزيةٌ لا تكونُ للتَّصريح، أنَّ كلَّ عاقلٍ يَعْلمُ إذا رجعَ إلى نفسهِ، أَنَّ إثباتَ الصفةِ بإثباتِ دَليلِها،

(١) من قصيدة مطلعها: ما لنا كُلُّنا جَوٍ يا رسولُ ... أنا أهوى وقلبُك المَتبولُ/ ديوان المتنبي ص٤٢٩ .

(٢) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي (مطبوع بهامش شرح العكبري) ليوسف البديعي الدمشقي ٣/ ٤٣٦ ط١ المطبعة العامرة الشرفية بالقاهرة– مصر ١٣٠٨ هـ.

(٣) مقطوعة من بيتين من ديوان السَّري الرَّفَّاء– تقديم: كرم البستاني ص١٠٨ ط١ دار صادر بيروت– لبنان ١٩٩٦م.

(٤) من قصيدة مطلعها: يا ويحَ من عَلِقَ الأحبَةَ قلْبُهُ ... حتى إذا ظَفِروا به قَتَلُوهُ/ ديوان العباس بن الأحنف– تحقيق عاتكة الخزرجي ص٢٨٤ ط١ دار الكتب المصرية بالقاهرة– مصر ١٣٧٣ هـ– ١٩٥٤م.

وإيجابَها بما هُو شاهِدٌ في وجودِها، آكدُ وأبلغُ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذَجًا غُفْلاً؛ وذلك أنَّكَ لا تدَّعي شاهدَ الصفةِ ودليلهَا إلاَّ والأَمرُ ظاهرٌ معروفٌ، وبحيثُ لا يُشَكُّ فيه، ولاَ يُظَنُّ بالمُخْبر التجوُّزُ والغَلَطُ."[1]

(١) الدلائل ص٧٢.

المبحث الثالث

الوسائل الحجاجية المستقاة من علم البديع

١-استيفاء الأقسام بالذكر.

ومعناه: "استيفاء أقسام الشيء بحيث لا يتصور للمقسم قسم آخر غير ما ذُكِر"(١) أي؛ "استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئًا"(٢)

من الفنون البديعية التي قد تستخدم لغرض الإقناع بفكرة ما فن استيفاء أقسام الشيء بالذكر؛ لأن في ذلك الاستقصاء غرضا يرمي إليه المتكلم، وهو حصر المراد تفنيده في الأقسام المذكورة، وذلك الحصر لا يدع للمخاطب مجالا للإضافة أو الحذف؛ وبذلك يرضخ تسليما لما ذكره المتكلم.

- ففي القرآن الكريم يقول الله –تعالى–: "لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ"(٣)

فقد وضَّح الله –عز وجل– أنه الواهب المنعم المتفضل على عباده بمختلف النعم؛ يهب إناثا، أو ذكورا، أو ينعم على بعض عباده بالذكور والإناث معا، وقد تتطلب حكمته أن يجعل بعض البشر عقيما، فتلك قدرته لا يُعترض عليها، ولا حجة لمن اعترض، ولم تترك الآية الكريمة

(١) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي– تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي ٢/ ٥٢٦ ط١ المكتبة العصرية صيدا– بيروت ١٤٢٦ هـ /٢٠٠٦م .

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لعبد العظيم بن الواحد ابن أبي الإصبع العدواني، تقديم وتحقيق: د. حفني محمد شرف ص١٧٣ ط١ لجنة إحياء التراث الإسلامي القاهرة– مصر د.ت.

(٣) الشورى ٤٩: ٥٠.

قسما في ذلك المعنى إلا استوفته، فأغلقت باب الإنكار، وأثبتت أن القدرة المطلقة لله –عز وجل– ، ومن بلاغة الذكر الحكيم أن قدَّم العطاء على المنع؛ تفاؤلا، ولتعدد أقسامه، والتذييل بقوله تعالى: "إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ" يناسب الهدف المنشود من الآية الكريمة فهو عليم بالحكمة المقتضية للعطاء ونوعه، والمقتضية للمنع وسببه، قدير على العطاء وعلى المنع، إذا أراد الشيء قال له كن؛ فيكون.

- وفي الحديث الشريف "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ –ﷺ– قَالَ: يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ."(١)

استهل النبي –ﷺ– التقسيم بأسلوب القصر، وهو من براعة الاستهلال هنا؛ لإفادته التقوية بحصر ما له في دنياه وأخراه على ما سيأتي بيانه، ثم شرع في تفصيل الأقسام بعد الإجمال في قوله: "ثَلَاثٌ"، والإجمال يجعل النفس تتطلع لمعرفة التفصيل، ويلهمها التفكير؛ للتنبؤ بتفصيل ما أُجمِل؛ مما يزيد النفس تشويقا وترغيبا في المعرفة، فإذا عرفته تمكَّن من النفس، ثم فصَّل الأقسام فاستوفاها بالذكر، فلم يجعل للبشر من أموالهم إلا ما أكلوا؛ فأفنوا، أو لبسوا؛ فأبلوا، أو تصدقوا به؛ فأبقوه ذخرا لأخراهم؛ فذاك التقسيم حجة على من تكالب على الدنيا ونال منها كل محرم؛ ليشبع رغبته في جمع الأموال، وحجة على من جمع المال ثم اقترَّ به على نفسه وولده؛ خشية الإنفاق حتى مات وتركه لم ينتفع به شيئا؛ وذلك لأنه ليس له من ماله إلا ما ذُكِر، وللتأكيد على حجة التقسيم ختم النبي–ﷺ– الحديث بالتذييل المؤكد لمنطوق الحكم السابق قائلا –صلى الله عليه وسلم–: "وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ"، فأقنع السامعين، ولم يترك لأحد

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٧٣ كتاب الزهد والرقائق (رقم٢٩٥٩).

حجة في الاستماتة على المحرمات؛ بغية الغِنى، أو التقتير على النفس وعدم أداء حقوق الله – تعالى؛ بغية الحفاظ على ما يملك.

- ومن النثر أيضا ما روي من أنه: "قحطت البادية في أيام هشام بن عبد الملك؛ فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يتكلموا، وفيهم درواس بن حبيب ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة، وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما يشاء أحد أن يدخل عليّ إلّا دخل حتى الصبيان! فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقا، فقال: يا أمير المؤمنين، إن للكلام نشرا وطيا، وأنه لا يعرف ما في طيه إلّا بنشره، فإن أذنت لي أن أنشره نشرته، قال: أنشر لا أبالك! وقد أعجبه كلامه مع حداثة سنه، فقال: إنه أصابتنا سنون ثلاث: سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أنقت العظم، وفي أيديكم فضول أموال، فإن كانت لله تعالى؛ ففرقوها في عباده، وإن كانت لهم؛ فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم؛ فتصدقوا بها عليهم فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك لنا الغلام في واحدة من الثلاثة عذرا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار وله بمائة ألف درهم، فقال: أرددها يا أمير المؤمنين إلى جائزة العرب، فإني أخاف أن تعجز عن بلوغ كفايتهم، فقال: أما لك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين؛ فخرج وهو أنبل القوم."[(١)]

فقد استفتح الغلام حديثه ببراعة استهلال قائلا: "إن للكلام نشرا وطيا" فأكد المعنى بـ(إن) واسمية الجملة، وأتبعها بقوله: "وأنه لا يعرف ما في طيه إلّا بنشره" بأسلوب القصر المؤكِّد؛ فشوَّق هشام بن عبد الملك وحاشيته لمعرفة ما في طيه، وما إن بثَّ في نفوسهم حب الاستطلاع

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار لجار الله الزمخشري ٥/ ٢٢٦ ط١ مؤسسة الأعلمي، بيروت- لبنان١٤١٢ ه، وينظر: التذكرة الحمدونية لأبي المعالي بهاء الدين محمد بن الحسن البغدادي ٢/ ٢٣ ط١ دار صادر، بيروت- لبنان ١٤١٧ ه، وينظر: المستطرف في كل فن مستظرف لأبي الفتح شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي ص٥٦ ط١ عالم الكتب- بيروت- لبنان ١٤١٩ ه.

حتى أتبعها بقوله: "فإن أذنت لي أن أنشره نشرته" وهو بذلك قد ضَمِن قبول طلبه؛ بالسماح له بالكلام على الرغم من حداثة سنه وازدراء هشام بن عبد الملك له حين قال لحاجبه: "ما يشاء أحد أن يدخل علي إلّا دخل حتى الصبيان!"، فلما تكلم أجمل في قوله: "إنه أصابتنا سنون ثلاث"، وذاك الإجمال يبث في النفس التشويق لمعرفة تفصيل ما حدث في تلك السنين، فأتبع الغلام التفصيل عقب الإجمال قائلا: "سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أنقت[1] العظم" مُفصلا ومُقسما السنين العصيبة حتى استوفى أقسامها بالذكر، فلم تدع شيئا تلك السنون إلا وأتت عليه، وتلك بداية حجته التي احتجَّ بها عن طريق التقسيم؛ لينال عطايا الخليفة، ثم أتبع التقسيم بآخر قائلا: "وفي أيديكم فضول أموال، فإن كانت لله تعالى؛ ففرقوها في عباده، وإن كانت لهم؛ فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم؛ فتصدقوا بها عليهم فإن الله يجزي المتصدقين"، فلم يترك قسما إلا استوفاه، فدعواه: حاجتهم للمال، ووسيلته الحجاجية الإقناعية: فن التقسيم الذي آتى أُكله؛ فلم يترك للخليفة عذرا في منع الصدقة عنهم؛ وقد أعطاهم فوفاهم.

- ومن الشعر قول عمر بن أبي ربيعة:

"وَهَبْهَا كشيءٍ لم يَكُن أو كَنازِحٍ به الدارُ أو من غَيَّبَتهُ المَقابرُ"[2]

فالشاعر يحاجج نفسه يقنعها بالسلوى؛ حتى لا يترك لنفسه حجة للتفكير فيها بعد فقدها، فجعلها بين أحوالٍ ثلاثة؛ أولها: شيء لم يكن، ولم يمر به ولم يعلم عنه شيئا؛ فما الداعي للتفكير في شيء لم يكن، وثانيها: نازح به الدار رحل وغاب في دروب الدنيا دون أمل في الرجوع؛ فلا حاجة لانشغال النفس به، وثالثها: شخص مات واندثر لن يعيده التفكير فيه، فهو بهذا التقسيم

(١) نُقِتَ العظمُ ونُكِتَ: إذا أُخرِج مُخُّهُ/ اللسان مادة (نقت).

(٢) من قصيدة مطلعها: يقولُ عتيق إذا شكوتُ صبابتي وبيَّن داءٌ من فؤادي مُخَامر/ ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٧٠ ط١ دار القلم ببيروت- لبنان د.ت .

الذي استوفى أحوال المفقود بالذكر يهدهد نفسه؛ ليطمئنها، وينزع منها ألم العشق، ويجتث جذور الشوق، فهي حالة إقناعية للنفس ولمن أحب وخذله حبيبه، أو تركه ورحل.

٢-المذهب الكلامي

وهو: "أن يُورِد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام"[١]، وعُرِّف أيضا بـ"احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه؛ لأنه مأخوذ من علم الكلام الذي هو عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية."[٢]

وأول من أطلق عليه هذا الاسم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ونسبه ابن المعتز إلى التكلف، ونزَّه عنه القرآن الكريم، يقول ابن المعتز: "سماه عمرو الجاحظ المذهب الكلاميّ، وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئًا، وهو ينسب إلى التكلف -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً."[٣]

وعلى الرغم من إنكار ابن المعتز لوجود هذا الفن في القرآن الكريم فقد أثبته غيره، يقول ابن حجة الحموي عن إنكار ابن المعتز له: "وليس عدم علمه مانعًا علم غيره، ولم يُستشهَد على المذهب الكلامي بأعظم من شواهد القرآن."[٤]

وبمراجعة شواهد هذا الفن أجد أنه يحسن إذا لم يُتعسَف فيه، فإذا لم يُتكلَف فيه كان من خير الوسائل البلاغية للإقناع بالحجة، والعكس صحيح فإذا أُوتي به متكلفا دخل في ضرب

(١) الإيضاح للخطيب القزويني م٢/ ٦/ ٦٥ .

(٢) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع العدواني ص١١٩ .

(٣) البديع في البديع لأبي العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله ص١٤٧ ط١ دار الجيل- بيروت- لبنان١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

(٤) خزانة الأدب وغاية الأرب لتقي الدين أبي بكر ابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو ١/ ٣٦٤ ط٣ دار الهلال- بيروت- لبنان ٢٠٠٤م.

التعقيد المعنوي، وإن تعسف في تقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها؛ ليحصل المعنى المراد دخل في التعقيد اللفظي، وأضحى شاهدا للتعسف.

أما شواهده التي استدعاها المعنى دون تعسر أو تكلف في النثر والشعر، فمنها:

- من القرآن الكريم يقول الله تعالى: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ"(١)

أي؛ لو افترضنا جدلا أن للكون آلهة غير الله؛ لتصارعوا، ولذهب كل إله بما خلق، ولاعتلى بعضهم على بعض، ولفسدت السماوات والأرض بخروجهما عن نظامهما الذي قُدِّر لهما، ولكن ذلك كله غير حاصل، والسماوات والأرض لم تفسدا؛ فثبت من عدم حصول ذلك الوحدانية لله –عز وجل–، بالعقل والمنطق، فالمذهب الكلامي فن من فنون الإقناع بالحجة، بل إنه يعد من أبرزها إذا لم يُتكلَّف فيه.

- ومن الشعر قول "مالك بن المرحل الأندلسي:

لو يكون الحب وصلًا كله ... لم تكن غايته إلا الملل

أو يكون الحب هجرًا كله ... لم تكن غايته إلا الأجل

إنما الوصل كمثل الماء لا ... يستطاب الماء إلا بالعلل"(٢)

فقد جعل غاية الحب ومنتهاه الملل إذا كان وصلا كله، وجعل غايته ومنتهاه الفناء إذا كان هجرا كله، وذاك منطق موافق للواقع في كثير من حالات الحب، بل في الصداقة أيضا؛ فالإنسان في طبعه الملل يعشق الصعاب، وينفر من السهل الحاضر في كل الأوقات، وكذا يصيبه اليأس إذا بات يحاول مرارا وتكرارا دون جدوى، لذا جعل الوصل كالماء، فكما أن الماء لا تشعر بلذته إلا

(١) الأنبياء آية٢٢ .

(٢) خزانة الأدب ١/ ٣٦٤.

مع العطش، كذلك الوصل يحلو إثر تجرع عذاب الشوق ومرارة الهجر، فقد أقنع الشاعرُ المخاطبَ بالمعنى المراد عن طريق المذهب الكلامي وطريقه القياس بالعقل والمنطق.

٣-التعليل.

"وهو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع، أو متوقع فيقدم... علة وقوعه"(١)

ولا أعني بالتعليل الطريف منه الذي ساقه الشعراء؛ تمليحا فقط لغرض كالغزل أوالمدح،أو غيره، كقول ابن المعتز:

"صـــدَّت شُـــرَير وأزمـــــعت هجري وصَـــغَت ضـــمائـرُها إلـى الـغَـدْرِ

قـالـت: كـبـرت وشِـــبـتَ قُـلـت لـهـا: هـــذا غُـــبـــارُ وَقـائـــع الـــدَّهـــرِ"(٢)

فهذا وجه حسنه "إظهار ما ليس بواقع كالصحيح الواقع، وهذا شرط لكونه محسنا لا اعتبار موجب له"(٣)، لذا أتناول في التعليل ما سيق للإقناع بالحجة إلى جانب طرافته، فهو "كل صياغة فنية تبرر وقوع الحدث من وجهة نظر صاحبها."(٤)

- فمن الذكر الحكيم قوله تعالى: "خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ"(٥)

"مَعْلُومٌ مِنَ الْمَقَامِ أَنَّ الْمَأْمُورِينَ بِأَنْ يَأْخُذُوهُ هُمُ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِسَوْقِ أَهْلِ الْحِسَابِ إِلَى مَا أُعِدَّ لَهُمْ... وَغُلُّوهُ: أَمْرٌ مِنْ غَلَّهُ إِذَا وَضَعَهُ فِي الْغُلِّ وَهُوَ الْقَيْدُ الَّذِي يُجْعَلُ فِي عُنُقِ الْجَانِي

(١) تحرير التحبير ٣٠٩.

(٢) مقطوعة من بيتين في ديوان ابن المعتز- تحقيق: كرم البستاني ص٢٥٨ ط١ دار صادر بيروت- لبنان د.ت

(٣) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي م١/ ٤/ ٦١٦ ط١٧ مكتبة الآداب بالقاهرة- مصر ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥م.

(٤) البديع تأصيل وتجديد د. منير سلطان ص١٨٤ ط١ منشأة المعارف بالإسكندرية- مصر ١٩٨٦م.

(٥) الحاقة الآيات ٣٠: ٣٤.

أَوِ الْأَسِيرِ"[١]، وأساليب الأمر في الآية الكريمة كلها على حقيقتها للوجوب، وألحظ مفارقة في العطف؛ فقد عطف بين "خُذُوهُ فَغُلُّوهُ" بالفاء؛ ليفيد سرعة تكبيله بالأغلال إثر أخذه، ففور أن يؤخذ يُغَل، بينما عطف بين "فَغُلُّوهُ"، وجملة "الْجَحِيمَ صَلُّوهُ" بـ(ثم)، وكذا عطف بينها وبين "ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ" بـ(ثم)؛ لتفاقم العذاب وتدرجه من الأدنى في الأخذ والغل إلى الأعلى في تصلية الجحيم والإسلاك، يقول صاحب التحرير والتنوير عن (ثُمَّ) في الآية الكريمة إنها "لِلتَّرَاخِي الرُّتَبِيِّ"[٢]، أي؛ "للتفاوت لا لتراخي المدة"[٣] كما وصفها صاحب الكشاف، ويعني بالتفاوت؛ البون بين درجات العذاب، فالتراخي في (ثُمَّ) هنا لدرجات العذاب لا للزمن، فقد أُخِذ فغل، ثم صلي الجحيم وقد سُلِك بالسلسلة فكان مقيدا ثم مُكبلا في الجحيم وذلك أبشع من مُطلق زجه في الجحيم حرا طليقا، فقد عملت (ثم) هنا على نقل صورة العقاب للمتلقي بخطواتها تدرجا من الأدنى إلى الأعلى، وقدَّم المفعول "الْجَحِيمَ" على عامله "صَلُّوهُ"؛ لتعجيل المساءة، بينما قدَّم الجار والمجرور "فِي سِلْسِلَةٍ" على قوله: "فَاسْلُكُوهُ"؛ للتخصيص، فلا يُسلَك إلا في تلك السلسلة والتي وُصِف طولها بجملة"ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا"؛ مبالغة في بيان الطول؛ "فَعَدَدُ السَّبْعِينَ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى الْكَثْرَةِ عَلَى طَرِيقَةِ الْكِنَايَةِ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ"[٤]، وفي ذلك توضيح لوقع العذاب الناجم عنها، هذا إلى جانب مراعاة الفاصلة.

وقوله تعالى: "إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ" تعليل لاستحقاقه العذاب العظيم؛ أي أن علة ذلك العذاب العظيم جرمه العظيم، فقد كان كافرا بالله –

(١) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢٩/ ١٣٧ ط١ الدار التونسية للنشر –تونس د.ت.

(٢) السابق ٢٩/ ١٣٨.

(٣) الكشاف ٤/ ٦٠٥.

(٤) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٣٧.

تعالى-، مستخدما في التعبير عن ذلك الجملة الاسمية المؤكدة بـ(إنَّ) واسميتها؛ مما يبين عظم جرمه وهو كفره إصرارا وتعمدا، وعطف عليها جملة: "وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ" وهي كناية عن بخله الشديد؛ لأن من منع الحضَّ على الإطعام وحرَّض غيره على المنع فهو شديد البخل؛ فمن بخل بما عند غيره بخل بما عنده من باب أولى، فتلك كناية عن بخله الشديد ومنعه حقوق المساكين في الزكاة والصدقات، وذلك عند الله عظيم يستحق فاعله العقاب العظيم، فكانت وما عُطفت عليه تعليلا لما تقدَّم ذكره، وفي ذلك التعليل إقناع باستحقاقهم العذاب؛ لسابق جرمهم العظيم، "وعن أبى الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق؛ لأجل المساكين، وكان يقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان، أفلا نخلع نصفها الآخر؟"[١]

- وفي الحديث الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: "لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ - وَفِي حَدِيثِ زُهَيْرٍ عَلَى أُمَّتِي- لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ"[٢]

ففي الحديث الشريف علة متقدمة لعدم أمر النبي -ﷺ- لأمته باستخدام السواك عند كل صلاة، وتلك العلة هي خشيته من أن يَشق -ﷺ-على أمته، وهي علة توضح سبب المنع وتقنع السامع به من جهة، وتبين فضل استخدام السواك من جهة أخرى، فقد وضح الحديث الشريف فضل السواك بطريق غير مباشر، وهو الطريق نفسه الذي جُعِل سببا لعدم فرض السواك عند كل صلاة، وتلك بلاغة من النبي -ﷺ-؛ حيث بيَّن فضل الشيء، وعلته، وحثَّ عليه، وأشفق من الإلزام به، كل ذلك في لفظ موجز بليغ.

- ومما جمع بين الإقناع والطرافة قول أبي تمام:

لا تُنْكِرِي عَطَلَ الكريمِ من الغِنَى فالسيلُ حربٌ للمكانِ العالي

(١) الكشاف ٤/ ٦٠٦.

(٢) صحيح مسلم -باب السواك ١/ ٢٢٠ (رقم ٢٥٢).

فعلى الرغم من كون الشاعر استخدم علة خيالية إلا أنه أقنعنا بمراده عن طريق القياس بصورة فنية تجمع بين الإقناع والإمتاع معا؛ فقد جعل علة عدم بقاء المال في حوزته رفعة شأنه وشدة كرمه التي جعلته يتصدق فلا يبقي مالا في يديه، فهو عالي القدر رفيع المنزلة شأنه شأن المكان العالي ينحدر منه الماء فلا يبقى إلا في الأسافل، وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر: "فهذا قد خَيَّل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفًا بالعلوّ، والرِّفعة في قدره، وكان الغِنَى كالغَيْث في حاجة الخلق إليه وعِظَمِ نَفْعه، وجب بالقياس أن يزِلَّ عن الكريم، زَلِيلَ السَّيل عن الطَّوْد العظيم"(١)، فتلك صورة قياسية تجمع بين الإقناع والإمتاع معا، وترد نقد الناقد، وتجذب قلب الحبيب؛ "فالتعليل محاولة الإقناع التي يقوم بها الفنان؛ لتحظى صورته بالقبول لدى المخاطب"(٢)

(١) الأسرار ٢٦٧.

(٢) البديع تأصيل وتجديد د. منير سلطان ١٨٦.

المبحث الرابع

من بلاغة الإقناع في بعض آي نفي الولد والشريك عن الله - ﷻ

قال تعالى: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﷻ عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"(١)

أي؛ "أشركوهم في عبادته، لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله، وقيل: هم الذين زعموا أنّ الله خالق الخير وكل نافع، وإبليس خالق الشر وكل ضارّ، وَخَلَقَهُمْ وخلق الجاعلين لله شركاء، ومعناه: وعلموا أن الله خالقهم دون الجن، ولم يمنعهم علمهم أن يتخذوا من لا يخلق شريكا للخالق...، وَخَرَقُوا لَهُ: أي افتعلوا له بَنِينَ وَبَنَاتٍ؛ وهو قول أهل الكتابين في المسيح وعزير، وقول قريش في الملائكة."(٢)

"الجعل هنا: القول والحكم على الشيء"(٣)، فقد زعموا افتراءً أن الجن شركاء لله، وقدَّم مفعول جعل الثاني (شُرَكَاءَ) على مفعوله الأول (الجن)، فلم يقل: (وجعلوا لله الجن شركاء)؛ لتنزيه الله –عز وجل– عن مبدأ التشريك، فمبدأ التشريك محرم مرفوض في ذاته سواء أكان من الجن أم من غيرهم، والواو في قوله تعالى: "وَخَلَقَهُمْ" للحال، ولا تحسن تلك الجملة إلا بالواو، يقول الإمام عبد القاهر-رحمه الله- عن واو الحال: "حَسُن أن تقول: جاءني زيد والسيف على كتفه، وخرج والتاج عليه، فتجده لا يحسن إلا بالواو، وتعلم أنك لو قلت: جاءني زيد السيف على كتفه،

(١) الأنعام ١٠٠: ١٠١.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٢.

(٣) ينظر: اللسان مادة (جعل).

وخرج التاج عليه؛ كان كلاما نافرا لا يكاد يقع في الاستعمال"[١]، وفي الآية الكريمة زعموا شراكة الجن لله حال كون الجن مخلوفين لله –تعالى–، وفي ذلك دلالة على سخف عقولهم؛ إذ كيف يكون المخلوق شريكا للخالق؟! فجملة: "وَخَلَقَهُمْ" الحالية فيها إقناع بالدليل على بطلان زعمهم.

وبين "وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا" طباق؛ فالخلق والخرق ضدان؛ يقول الراغب الأصفهاني: "إنّ الخلق هو فعل الشيء بتقدير ورفق، والخرق بغير تقدير"[٢]، فقد اختلقوا الكلام كذبا بغير تقدير، وقد يستعملان بمعنى واحد؛ يقول صاحب اللسان: "خَلَق الكلمة واختلقها، وخَرَقها واخترقها إذا ابتدعها كذبا"[٣]

وقد تكون من خرق ثوبا إذا شقَّه نصفين أو أجزاء على سبيل الاستعارة التبعية؛ حيث استعار شق الثوب إلى أجزاء من أصل واحد لاشتقاق الولد من البنين والبنات –تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا–، وتعقيب الاستعارة بقوله تعالى: "بِغَيْرِ عِلْمٍ" يبين سفه عقولهم، ويقنع السامعين ببيان تجاوزهم الحد في الابتداع بغير نظر؛ إذ بنوا زعمهم على غير أساس أو مرجعية من العلم.

وبين (خَلَق) و (خَرَق) جناس مضارع لا تقف بلاغته على حد تناسق النغم المؤدي إلى سرعة الحفظ ويسره، بل يتطرق إلى بيان الفارق العظيم بين فعل الله –تعالى–، وفعل هذه الطائفة من البشر، فالله خلقهم وخلق الجن، وإيجادهم في الحياة يستحق الشكر لا الكفر، ومع علمهم بذلك قابلوا الإحسان بالنكران؛ فأشركوا بالله –تعالى–، واختلقوا له البنين والبنات سفها بغير علم؛ فالجناس يوضح انعدام المنطقية العقلية لهذه الأقوال.

---

(١) الدلائل ص٢٢١.

(٢) المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهانى ص٢٨٠.

(٣) اللسان مادة (خرق).

يقول الله –تعالى–: "بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"

تضمنت الآية الأولى افتراء على الله –سبحانه–، وجاءت الآية الثانية لترد ذلك الافتراء بالأدلة والبراهين المقنعة، أولها جملة: "بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" وهي خبر لمبتدأ محذوف تقديره: (هو بديع السماوات والأرض) حذفه؛ لتعيين المسند إليه، فليس للسماوات والأرض مبدع غير الله –تعالى–، فذاك الأمر العظيم قد اختص به الله –سبحانه وتعالى– وذلك دليل أول على أن الله لا يكون والدا أبدا؛ لأن خالق تلك الأجسام الهائلة بما تحويه من أجرام عظيمة ومخلوقات جمة لا يكون أقل منها ولا يساويها في المقدار بل هو أعظم منها، وكونه أعظم منها يجعله لا يوصف بما توصف به المخلوقات الضعيفة من الولادة، والدليل الثاني في قوله تعالى: "أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ" فالزوج يفتقر إلى زوجة لتتم له عملية الإنجاب، ولم يثبت لله –عز وجل– الزوجية، ولا ادعتها مخلوقة من مخلوقاته، وقدرته المطلقة تنفي افتقاره إلى الزوجة؛ فثبت عدم الزوجية، فأنى يكون له ولد بدون زوجة، والاستفهام في ذلك استبعادي ينفي حدوث الأمر، وللاستفهام دور كبير في الحجاج؛ إذ يطرحه المتكلم، فيستنطق به المخاطب، وفي الاستنطاق حملٌ للمخاطب على الإقرار، فالله –جل شأنه– يستخرج من قلوبهم الإجابة، وليس لهم دليل إثبات على أن لله –تعالى– زوجة، فإذا تيقنوا من نفي الزوجة ينتفي الولد بالتبعية، وتقام عليهم الحجة، والدليل الثالث في قوله تعالى: "وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"، فهم معترفون بأن الله خالق كل شيء قال تعالى: "وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"(١)، وقال تعالى: "وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ

(١) لقمان آية ٢٥.

فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ"[١]، فإذا كانوا موقنين بأن الله خالق كل شيء، فكيف يكون له ولد، والولد مخلوق، والله غني عن أن يخلق له ولدا؛ لأنه بقدرته المطلقة التي خلق بها كل شيء، وعلم بها كل شيء لا يفتقر إلى من يسانده ويدعمه من الولد، فالافتقار إلى الولد للسند والتسرية عن النفس ولإعمار الكون؛ أمر أودعه الله في مخلوقاته، وتنزه عنه تنزيها.

وقال تعالى: "قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"[٢]

"قالُوا": الضمير "عَائِدٌ إِلَى الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكاءَ؛ أَيْ قَالَ الْمُشْرِكُونَ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً"[٣]

والِاتِّخَاذُ: استئثار بالشيء، واختصاصه بالنفس على طريق القصد والتعمد لا المصادفة، فهو قصد إلى فعل شيء ما من جهة الفاعل؛ يُستفاد ذلك من قول الرضي في دلالة (افتعل) على معنى الاتخاذ: "والظاهر أنه لاتخاذك الشيء أصله لنفسك"[٤]، وفي التحرير: الِاتِّخَاذُ: "جَعْلُ شَيْءٍ لِفَائِدَةِ الْجَاعِلِ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَخْذِ لِأَنَّ الْمُتَّخِذَ يَأْخُذُ الشَّيْءَ الَّذِي يَصْطَفِيهِ...، فَالِاتِّخَاذُ يَصْدُقُ عَلَى أَخْذِ شَيْءٍ مَوْجُودٍ؛ لِلِاسْتِئْثَارِ بِهِ، وَيَصْدُقُ عَلَى تَكْوِينِ شَيْءٍ لِلِانْتِفَاعِ بِهِ، وَهُوَ هَنَا صَالِحٌ لِلْمَعْنَيَيْنِ؛ لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُ تَوَلُّدَ الْوَلَدِ عَنِ اللهِ تَعَالَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ تَبَنَّى بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ."[٥].

---

(١) الزخرف آية٨٧.

(٢) يونس آية ٦٨.

(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٢٢٩.

(٤) شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي- تحقيق: محمد نور الحسن- محمد محيي الدين- محمد الزفزاف ١/ ١٠٩ ط١ دار الكتب العلمية ببيروت- لبنان ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م.

(٥) التحرير والتنوير ١١/ ٢٢٩.

فالقول المُدَّعَى منهم كذبا أن الله –سبحانه– اصطفى لنفسه ولدا، أو خلقه؛ للانتفاع به، وكلاهما باطل، نقده الله –عز وجل– بقوله –تعالى–: "سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ"، فجملة "سُبْحَانَهُ" اعتراضية تُنزه الله –تعالى– عن معتقدهم الباطل، تلتها الجملة الاسمية: "هُوَ الْغَنِيُّ"؛ لتفيد ثبوت المعنى، يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله-: "يَقْتضي الاسمُ ثُبوتَ الصفةِ وحُصولها من غيرِ أن يكونَ هناك مُزاولةٌ وتَزْجيةُ فعلٍ"[١]، فالغِنى ثابت دائم لله –عز وجل–، وقد ذكر المسند إليه (هو)؛ لزيادة الإيضاح والتقرير، فالتوضيح هنا لدحض حجتهم ونقضها، وبطلان زعمهم الزائف، والغَنيُّ صيغة مبالغة على زنة (فعيل) تؤكد الغنى المطلق لله –عز وجل– عن اتخاذ الولد، ومن ثم أتبعها بجملة: "لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ" مفصولة عن سابقتها؛ لكمال الاتصال، فكونه –جل شأنه– مالكا للسماوات والأرض وما فيهن فيه توضيح لجملة "هُوَ الْغَنِيُّ"، وهو تفصيل بعد إجمال؛ يوقظهم من ثباتهم العميق، ومن تخبطهم الأعمى في متاهات الضلال؛ إذ كيف للغني مالك السماوات والأرض أن يتخذ ولدا، وكل ما في الكون في قبضته؟!

ومن حجة إلى أخرى ينتقل الذكر الحكيم قائلا: "إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا": "إن: نافية"[٢]، و(من) "تفيد التنصيص على العموم؛ لتأكيد نفي استغراق الجنس"[٣]؛ ليستغرق النفي بها الحجج جميعها قويها وضعيفها، وهنا التفات من الغيبة في: "قالوا" إلى الخطاب؛ ليفحم الخصم بتوجيه الحجة توجيها مباشرا عن طريق الخطاب، يكشف به جهلهم وسفه عقولهم؛ إذ ادعوا ما لا حجة لهم عليه؛ فنُقِض قولهم، وبطل زعمهم، وقد أشار إلى قولهم بـ(هذا) للقريب؛

(١) الدلائل ص١٧٥.

(٢) ينظر: الجنى الداني ص٩٦.

(٣) ينظر: الجنى الداني ص٩٦.

لتحقير قولهم المندفع عن غير حجة، وفي الجملة استعارة مكنية؛ حيث شبَّه السلطان وهو الحجة بشيء مادي يحوزه صاحبه، وحذفه، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الوجود الحسي الدال عليه لفظة "عِنْدَكُمْ"، وفي تجسيد الحجة مبالغة في بيان ضرورة تحري الصدق في القول بالدليل المقنع، فإذا انتفى ذلك انتفى قولهم، وبطل زعمهم، فالتجسيد النابع من الاستعارة يرسخ ذاك المشهد الإقناعي في أذهانهم كلما مرَّ بعقولهم فكرة إثبات الولد، فالاستعارة تمتلك من القوة الإقناعية ما يجعلها من أنجح الوسائل الحجاجية للوصول إلى إذعان المخاطب، فالاستعارة الإقناعية هي "تلك الاستعارة التي تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي"(١).

ثم ختم الذكر الحكيم بحجة ثالثة تمثلت في الاستفهام التوبيخي قائلا -جل شأنه-: "أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"، والجملة مفصولة عن سابقتها؛ لكمال الانقطاع؛ فتلك خبرية وهذه إنشائية استفهامية توبيخية تُنكر عليهم قبيح اعتقادهم، وبلاغة الإقناع في الأسلوب الاستفهامي تدور في فلك استنطاق المخاطب، فهو سحبٌ للجواب من منطوق المخاطب؛ حتى يُقر ويُذعن بالحجة، أو ينغلق جوابه؛ فيُفحَم وتقام عليه الحجة، وهو إلى جانب الإنكار عليهم، ونقد فكرتهم حد النقض، واستنطاقهم؛ لإقامة الحجة عليهم وإفحامهم، يوبخهم توبيخا يكشف عن جهلهم وسفه عقولهم.

وقال تعالى: "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ

(١) اللغة والخطاب لعمر أوكان ص١٣٤.

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"(١)

افتُتحت الآية الكريمة بالفعل المضارع في "وَيَعْبُدُونَ"؛ لاستحضار الصورة وبيان تكرار حدوث هذه العبادة، وهي عبادة الأصنام يتوارثها الأجيال كما أخبر عنهم الذكر الحكيم؛ قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"(٢)، وقال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"(٣)، والتعبير بالموصول لغير العاقل في قوله تعالى: "مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا"؛ للتحقير من شأن هذه المعبودات، وتنكير لفظتي "رِزْقًا- شَيْئًا"؛ للتقليل؛ أي لا يملكون لهم ولو أقل القليل من الرزق؛ ليبين لهم أنها معبودات لا تنفع أصحابها، وفي ذلك البيان حجة عليهم؛ إذ كيف يعبدون ما لا يملك لهم من القوت شيئا، وحذف المفعول في قوله تعالى: "وَلَا يَسْتَطِيعُونَ"؛ لإفادة العموم؛ أي لا يستطيعون فعل شيء البتة من رزق رعاياهم، أو دفع الضرر عنهم، أو شفائهم من الأمراض، أو غيرها من الأشياء التي يقدر عليها الخالق المعبود، وتلك حجة أخرى عليهم تثبت أنهم يعبدون ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

والنهي في قوله تعالى: "فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"؛ للتحذير زجرا عن تشبيه الله -عز وجل- بالأصنام أو غيرها، وفي قوله تعالى: "إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" تعليل للزجر، فالله عليم وهم جُهَّال، ولا يستقيم للجاهل أن يضرب المثل للعالم، والتعليل

(١) النحل الآيات ٧٣: ٧٦.

(٢) المائدة جزء آية ١٠٤.

(٣) لقمان جزء آية ٢١.

توضيح للغرض وإقناع به؛ "فإن إثبات الحكم بذكر علته أروج في العقل من إثباته بمجرد دعواه"(١).

وصدَّر جملة التعليل الاسمية بـ(إنَّ) المؤكدة؛ لإزالة الشك من قلوبهم، ورفع الإنكار، فحالهم يستدعي التأكيد؛ فقد عبدوا من دون الله –تعالى– ما لاينفع ولا يضر، لذا كان حتما جلاء الصدأ عن هذه العقول.

وفي "يَعْلَمُ" و"لَا تَعْلَمُونَ" طباق السلب، وسر بلاغة الطباق تبدو في كشف النقاب عن البون الشاسع بين حالتين؛ إحداهما علم مطلق لكل ما في السماوات والأرض، والأخرى جهل مطبق على العقول ينسج نسجا معقدا من الغشاوات على البصر والبصيرة.

وينتقل الأسلوب الحجاجي في الآيات الكريمات من التوكيد والتعليل إلى ضرب المثل قائلا –جل شأنه–: "ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" مشبها حالهم في التسوية بين الله –جل شأنه– ومعبوداتهم من الأصنام، بحال من ساوى بين رجلين أحدهما عبد مملوك لا يملك من أمره شيئا، ولا يحوز مالا، والآخر سيدٌ غني له مال ينفق منه كيف يشاء، والوجه: هيئة التسوية بين حالين بينهما بون عظيم؛ فهما لا يستويان.

ويبدو سر بلاغة التمثيل في انتقاء المفردات وترابطها في نظم محكم بديع؛ فالعبد: "المملوك... وأصل العبودية: الخضوع"(٢)، ومع كون اللفظ يحمل هذا المعنى وَصَفَهُ بكلمة: "مَمْلُوكًا"؛ لتأكيد كونه لا يملك من أمره شيئا، ثم أتبعه بوصفٍ آخر؛ وهو قوله: "لَا يَقْدِرُ عَلَى

(١) المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك– تحقيق: حسني عبد الجليل يوسف ص٢٤١ ط١ مكتبة الآداب ١٩٨٩م.

(٢) ينظر: اللسان مادة (عبد).

شَيْءٍ"؛ لبيان كونه "عَاجِزًا عَنْ كُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ النَّاسُ، كَأَنْ يَكُونُ أَعْمَى وَزَمِنًا وَأَصَمَّ، بِحَيْثُ يَكُونُ أَقَلَّ الْعَبِيدِ فَائِدَةً"(١).

وعلى الجانب الآخر استخدم الذكر الحكيم الموصول (من)؛ للتفخيم من شأن الآخر، ووُصِف رزقُهُ بالحسن؛ احتراسا عن ضياعه بأسباب الفساد؛ ككساد التجارة أو ضياع المحصول لآفة، أو فقده وقت احتياجه، وغيرها من الأمور التي تعرقل التصرف في الأموال وقت احتياجها، ثم عطف عليه الجملة الاسمية "فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا" عطفا بالفاء؛ ليفيد سرعة التصرف في أمواله وقتما يشاء، والتكرار النابع من الفعل المضارع "يُنْفِقُ" يوضح مُضي قدرته على الفعل إذا أراد ذلك في أوقاته كافة، وفي شتى أحواله، وكون الإنفاق سرا وجهرا كناية عن قدرته، واستقلال تصرفه في أمواله، و"الأسلوب الكنائي يقوم على أساس التلازم الذي هو أحد عوامل تداعي المعاني؛ لأننا حين نستخدم الملزوم نريد اللازم"(٢)، فالكناية تحمل في طياتها الإقناع بمعنى خفي يظهر بين ثناياها؛ وهو بيان كمال عقله وخلوه من العيوب المانعة للتصرف، أو الموجبة للحجر، والجمع بين السر والجهر طباق ظاهر يؤكد استقلال تحكمه في أمواله وقتما يشاء وكيفما يشاء.

إن المقارنة في التمثيل بين حالين بينهما بون شاسع؛ ليتخذ الذكر الحكيم من ضرب المثل بيانا للحجة وإقناعا بها، يتبعها بالاستفهام الإنكاري "هَلْ يَسْتَوُونَ"؛ ليحملهم على الإقرار بالنفي النابع من الاستفهام، ومن هنا الإقرار بالفارق بين الحالين، ومن ثم بيان الفارق بين ما يعبدون وما أُمروا بعبادته، مُذيلا الآية الكريمة بقوله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" مقدما لفظة (الحمد)؛ للقصر؛ ليبين لهم بعد ضرب المثل أن المستحق للثناء وكمال الشكر هو الله لا أصنامهم، وإنما كان ذلك منهم؛ لأن أكثرهم لا يعلمون قد أطبق الجهل على عقولهم، والغشاوة

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٤.

(٢) البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم د. عبد الفتاح لاشين ص٢٦٥ ط١ دار الفكر العربي القاهرة- مصر ١٤٢٢ هـ ٢٠٠٢م.

على قلوبهم، وإذا كان أكثرهم جهلاء لا يعقلون فإن الأقلية منهم ممن اتصفوا بالعقل يكابرون في الحق، ويحيدون عن الاعتراف به؛ خوفا على سيادتهم المزعومة والمستفادة من الاستبقاء على عبادة الأصنام، وهم في الذنب أجل، وبعقاب الله أحق.

ولمزيد من إقامة الحجة عليهم، والإطاحة بعقيدتهم الجوفاء ضرب الله –عز وجل– مثلا آخر قائلا –جل شأنه–:

"وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"

فقد شبَّه حالهم في التسوية بين الله –جل شأنه– ومعبوداتهم من الأصنام، بحال من ساوى بين رجلين أحدهما أبكم لا يُحسن فعل شيء البتة، ولا يجلب الخير أبدا، والآخر رجل كامل الإدراك مُتقن لعمله يجري الخير بين يديه، والوجه: هيئة التسوية بين حالين بينهما فرق شاسع؛ لا يستويان أبدا.

فقد استُخدم التمثيل في الآيتين؛ لإقامة الحجة على المشركين؛ بتسفيه عقولهم، وبيان سوء اختيارهم وتقديرهم، وقد أجمل الذكر الحكيم في قوله: "رَجُلَيْنِ"، ثم فصَّل أحوالهما؛ للتشويق لمعرفة فحوى المثل المتعلق بالرجلين، وهو بذلك يختلف عن التمثيل الأول؛ مما يكشف عن تفنن النظم الحكيم وتنوع أساليبه ودروب بيانه.

ولمزيد من الإقناع بنعتهم بسوء الاختيار فصَّل الذكر الحكيم الطرفين؛ أما الأول فـ"أَبْكَمُ"، و"البَكَم: الخرس مع عيٍّ وبَله...،وقيل: أن يُولد الإنسان لا يَنطِق ولا يَسمَع ولا يُبصِر"[1]، ونعته بجملة: "لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ" مع تنكير لفظة شيء؛ للتعميم؛ أي لا يقدر على فعل شيء مطلقا، مما يؤكد عجزه التام، وعطف عليها الجملة الاسمية: "وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ" والكلُّ: "الذي هو

(١) اللسان مادة (بكم).

عِيالٌ وثِقلٌ على صاحبه"[١]؛ ليفيد ثبوت المعنى على مر زمانه وأحواله، فلا يتغير فيحسن شيئا أبدا وإن مرَّ به الزمان وتبدلت الأحوال، ولتأكيد قلة نفعه قال تعالى: "أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ" منكَّرا لفظة (خير)؛ للتقليل؛ أي لا يأت ولو بأقل القليل من الخير، فهو عالة على غيره، عديم الجدوى في أحواله شتى.

ولم يذكر الذكر الحكيم لفظة (الآخر) في تفصيل الرجلين؛ لدلالة لفظة "أَحَدُهُمَا" عليه في قوله تعالى: "وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا"، والاستفهام في قوله تعالى: "هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" من وسائل الاحتجاج عليهم؛ إذ يتطلب الاستفهام جوابا، وعملية التفاعل الذهني بين المتكلم والمخاطب من أهم سبل الإقناع، والجواب فيه إقرار بنفي التسوية بين الرجلين، إذ لا يستوي أبكم كلٌّ على مولاه لا يأتي بخير أينما توجه، برجل كامل العقل يأمر بالمعروف ويفعل الخير، والتعبير بالموصول (من) في جانبه للتفخيم من قدره، وقد فَارَق الذكر الحكيم في التعبير بالمضارع في "يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ" والتعبير بالاسمية في قوله تعالى: "وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"؛ أما المضارع فيبين تجدد الفعل؛ فأمره بالعدل وفعله صالح الأعمال أمر متكرر على مر أوقاته، وأما التعبير بالاسمية في قوله تعالى: "وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" فيفيد ثبوت المعنى؛ إذ طريق الحق والهدى واحد ثابت لا يتغير بينما طرق الخير كثيرة متعددة متكررة، وقد استعار الصراط المستقيم للحق استعارة أصلية تزيد في بيان عظم شأنه واختلافه عن سابقه؛ مما يوضح البون الشاسع بين عبادة الله –تعالى– وعبادة الأصنام الأشبه بالأبكم الذي لا يأتي بخير، والتي لا تنفع حتى نفسها إن وقع عليها اعتداء، بل لا تستطيع أن تنفض عن نفسها غبار الدهر.

(١) السابق مادة (كلل).

الخاتمـــة

الحمد لله ذي الجلال المنفرد بالكمال، والصلاة والسلام على حبيب الرحمن محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،،،

كانت تلك رحلتي مع الإقناع بالنقد الحجاجي، والتي تمخض البحث فيها عن نتائج أذكر منها:

- الحِجَاج بوصفه نظرية يتوصل من خلالها إلى الإقناع والإمتاع معا فن أصيل عند العرب.
- يزخر ديوان العرب بالإقناع الحجاجي على مر العصور الأدبية؛ مما يدل على قِدم نظرية الحجاج.
- يتميز الإقناع عن طريق الأسلوب الحكيم بالطرافة؛ فيتجلى للمخاطب في ألطف صورة وأبهى حلة؛ حيث يلبس فيه الإقناع حلة الإمتاع، فلا ترى فيه من نُقِدت فكرته وصُرِف نظره إلى اتجاه آخر متأففا ولا ضجرا، بل تراه مقتنعا بالحجة الجديدة ومستمتعا بها.
- من أبلغ أنواع الاستفهام المستخدمة للإقناع بالحجة: الاستفهام التقريري والاستفهام الإنكاري.
- لا يقتصر فن التذييل على وظيفة التأكيد فقط بل هو وسيلة للإقناع أيضا.
- تعد صحة التقسيم وسيلة حجاجية إذا استوفى المتكلم الأقسام بالذكر، وكان غرضه حمل المخاطب على الإقرار بالمعنى المراد، أو الاطمئنان لصحته.
- المذهب الكلامي من أبرز الوسائل الحجاجية للإقناع بالحجة إذا لم يُتكلَّف فيه.
- لا يعد الحجاج فنا منطقيا بحتا خاليا من روح الجمال بل هو فن جمالي فكري يجمع بين الإقناع وإيناس النفس بالحس الجمالي.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لشهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني ط٧ المطبعة الكبرى الأميرية بالقاهرة- مصر ١٣٢٣ هـ

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ط١ دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان د.ت

٣. أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر ط٣ دار المدني بجدة- السعودية ١٤١٣ هـ ١٩٩٢م

٤. الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ط١ دار الكتب المصرية بالقاهرة- مصر ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨م

٥. الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح للخطيب القزويني- شرح: محمد عبد المنعم خفاجي ط٣ دار الجيل- بيروت د.ت

٦. البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ط١ دار الفكر، بيروت- لبنان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

٧. البديع تأصيل وتجديد د. منير سلطان ط١ منشأة المعارف بالإسكندرية- مصر ١٩٨٦م

٨. البديع في البديع لأبي العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله ط١ دار الجيل- بيروت- لبنان ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م

٩. البرهان في وجوه البيان لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم ابن وهب الكاتب، تحقيق: حفني محمد شرف ط١ مطبعة الرسالة بالقاهرة- مصر د.ت

١٠. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي ط١٧ مكتبة الآداب بالقاهرة- مصر ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥م

١١. البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم د. عبد الفتاح لاشين ط١ دار الفكر العربي القاهرة- مصر ١٤٢٢ هـ ٢٠٠٢م

١٢. البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ط٧ مكتبة الخانجي بالقاهرة- مصر ١٤١٨ هـ ١٩٩٨م

١٣. بيت العنكبوت لفتحي الضو ط١ مطبعة جزيرة الورد بالقاهرة- مصر ٢٠١٥م

١٤. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لعبد العظيم بن الواحد بن أبي الإصبع العدواني، تقديم وتحقيق: د. حفني محمد شرف ط١ لجنة إحياء التراث الإسلامي القاهرة- مصر د.ت

١٥. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ط١ الدار التونسية للنشر -تونس د.ت

١٦. التذكرة الحمدونية لأبي المعالي بهاء الدين محمد بن الحسن البغدادي ط١ دار صادر، بيروت- لبنان ١٤١٧ هـ

١٧. التصوير البياني د/ حفني محمد شرف ط١ مكتبة الشباب بالقاهرة- مصر ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠م

١٨. التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية د. شفيع السيد ط٣ دار الفكر العربي بالقاهرة- مصر ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨م

١٩. التعريفات لعلي بن محمد الشريف الجرجاني ط١ دار الكتب العلمية ببيروت- لبنان ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م

٢٠. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه (صحيح البخاري) للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري- تحقيق: محمد زهير بن ناصر ط١ دار طوق النجاة ببيروت -لبنان ١٤٢٢ هـ

٢١. الجواهر الحسان في تفسير القرآن لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي- تحقيق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ط١ دار إحياء التراث العربي - بيروت- لبنان ١٤١٨ هـ

٢٢. خزانة الأدب وغاية الأرب لتقي الدين أبي بكر ابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو ط٣ دار الهلال-بيروت- لبنان ٢٠٠٤م

٢٣. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني - قرأه وعلق عليه / محمود محمد شاكر ط٣ مطبعة المدني بجدة- السعودية ١٤١٣ هـ ١٩٩٢م

٢٤. دلالات التراكيب دراسة بلاغية د. محمد محمد أبو موسى ط٤ مكتبة وهبة بالقاهرة- مصر ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

٢٥. ديوان بشار بن برد- شرح وتقديم: محمد الطاهر بن عاشور ط١ لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة- مصر ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧م

٢٦. ديوان أبي تمام -قدَّم له:أ. عبد الحميد يونس- أ. عبد الفتاح مصطفى ط١ مطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة- مصر ١٣٦١ هـ ١٩٤٢م

٢٧. ديوان الحطيئة- دراسة: د. مفيد محمد قميحة ط١ دار الكتب العلمية ببيروت- لبنان ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣م

٢٨. ديوان ديك الجن الحمصي- تحقيق: د.أحمد مطلوب- أ.عبد الله الجبوري ط١ دار الثقافة ببيروت-لبنان ١٣٨٣ هـ

٢٩. ديوان السَّري الرَّفَّاء- تقديم: كرم البستاني ط١ دار صادر بيروت- لبنان ١٩٩٦م

٣٠. ديوان صفي الدين الحِلّي ط١ دار صادر ببيروت- لبنان د.ت

٣١. ديوان العباس بن الأحنف- تحقيق عاتكة الخزرجي ط١ دار الكتب المصرية بالقاهرة- مصر ١٣٧٣ هـ- ١٩٥٤م

٣٢. ديوان عمر بن أبي ربيعة ط١ دار القلم ببيروت- لبنان د.ت

٣٣. ديوان المتنبي ط١ دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت- لبنان ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م

٣٤. ديوان ابن المعتز- تحقيق: كرم البستاني ط١ دار صادر بيروت- لبنان د.ت

٣٥. ديوان النابغة الذبياني- تقديم: عباس عبد الساتر ط٣ دار الكتب العلمية ببيروت- لبنان ١٤١٦ هـ ١٩٩٦م

٣٦. ربيع الأبرار ونصوص الأخيار لجار الله الزمخشري ط١مؤسسة الأعلمي، بيروت- لبنان١٤١٢ هـ

٣٧. رسائل الجاحظ- تحقيق: د. محمد طه الحاجري ط١ دار النهضة العربية ببيروت- لبنان١٩٨٣م

٣٨. شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي- تحقيق: محمد نور الحسن- محمد محيي الدين- محمد الزفزاف ط١ دار الكتب العلمية ببيروت- لبنان ١٤٠٢ ه ١٩٨٢م

٣٩. الصبح المنبي عن حيثية المتنبي (مطبوع بهامش شرح العكبري) ليوسف البديعي الدمشقي ط١ المطبعة العامرة الشرفية بالقاهرة- مصر ١٣٠٨ هـ

٤٠. صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري ت: محمد فؤاد عبد الباقي ط١ دار الكتب العلمية ببيروت، لبنان ١٤١٢ ه ١٩٩١م

٤١. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام يحيى بن حمزة العلوي- مراجعة وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين ط١ دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان ١٤١٥ ه ١٩٩٥م

٤٢. العقد الفريد لأبي عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ط١ دار الكتب العلمية ببيروت- لبنان ١٤٠٤ هـ

٤٣. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ط١ دار الطلائع للنشر القاهرة- مصر ٢٠٠٦م

٤٤. عمدة القاري شرح صحيح البخاري لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسى الغيتابي العيني ط١ دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان د.ت

٤٥. الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري- تحقيق: محمد إبراهيم سليم ط١ دار العلم والثقافة بالقاهرة- مصر ١٤١٨ ه ١٩٩٧م

٤٦. في أصول الحوار / الندوة العالمية للشباب الإسلامي ط١ دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة- مصر ١٤١٩ ه ١٩٩٨م

٤٧. في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات لعبد الله الصولة ط١ الشركة التونسية بتونس د.ت

٤٨. كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال الحسن بن سهل العسكري، تحقيق: أ. علي محمد البجاوي- أ. محمد أبو الفضل إبراهيم ط١ المكتبة العصرية صيدا- بيروت- لبنان ١٤٢٧ هـ ٢٠٠٦م

٤٩. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري -راجعه: يوسف الحمادي ط١ مكتبة مصر بالقاهرة- مصر ١٤٣١ هـ ٢٠١٠م

٥٠. لسان العرب لابن منظور ط١ دار المعارف بالقاهرة- مصر ١٩٨١م .

٥١. اللغة والحجاج لأبي بكر العزاوي ط١ العمدة في الطبع- الدار البيضاء- المغرب ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٦م

٥٢. اللغة والخطاب لعمر أوكَان ط١ إفريقيا الشرق بالدار البيضاء- المغرب ٢٠٠١م

٥٣. مختار الصحاح لزين الدين أبي بكر الرازي ط٢ دار السلام بالقاهرة- مصر ١٤٣٤ هـ ٢٠١٣م

٥٤. المستطرف في كل فن مستظرف لأبي الفتح شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي ط١ عالم الكتب- بيروت- لبنان ١٤١٩ هـ

٥٥. المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك- تحقيق: حسني عبد الجليل يوسف ط١ مكتبة الآداب ١٩٨٩م

٥٦. معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي- تحقيق: عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش ط٤ دار إحياء التراث العربي ببيروت- لبنان ١٤١٧هـ ١٩٩٧م

٥٧. معاني النحو د. فاضل السامرائي ط١ دار الفكر للطباعة بعمان ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م

٥٨. معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ط٢ دار صادر، بيروت د.ت

٥٩. المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني- تحقيق: صفوان عدنان الداودي ط١ الدار الشامية- بيروت-لبنان ١٤١٢ هـ ١٩٩١م

٦٠. مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ط١ دار الفكر للطباعة والنشر ببيروت- لبنان ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م

٦١. مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي- تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي ط١ المكتبة العصرية صيدا- بيروت ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٦م

٦٢. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة – يوسف الحاج أحمد ط٢ دار ابن حجر بدمشق- سوريا ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣م

فهرس موضوعات البحث

المقدمـــة ١١١٧
التمهيد: الحجاج مصطلح عربي أصيل ١١١٩
المبحث الأول: الوسائل الحجاجية المنبثقة من علم المعاني ١١٢٤
١ - أدوات التأكيد. ١١٢٤
٢-أسلوب الحكيم. ١١٣١
٣-الاستفهام. ١١٣٤
٤-التذييل. ١١٣٨
المبحث الثاني: الوسائل الحجاجية المستقاة من علم البيان ١١٤٠
١-التشبيه التمثيلي ١١٤٠
٢-الاستعارة. ١١٤٧
٣- الكناية والتعريض ١١٥٥
المبحث الثالث: الوسائل الحجاجية المستقاة من علم البديع ١١٦١
١-استيفاء الأقسام بالذكر. ١١٦١
٢-المذهب الكلامي ١١٦٥
٣-التعليل. ١١٦٧
المبحث الرابع: من بلاغة الإقناع في بعض آي نفي الولد والشريك عن الله -ﷻ- ١١٧١
الخاتمـــة ١١٨٢
فهرس المصادر والمراجع ١١٨٣
فهرس موضوعات البحث ١١٨٩